الباب الثاني

التربية في المجتمعات القديمة

تمهيد :

شهدت التربية في المجتمعات القديمة ظهور المدارس النظامية . ولم يكن الأمركذلك في المجتمعات البدائية كما أشرنا . ومن الصعب تحديد مكان وزمان ظهور أول مدرسة نظامية . لكن من المؤكد أن المدارس ظهرت في مصر القديمة . وكانت من أقدم المدارس ، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق .

أسباب ظهور المدارس :

كان لظهور المدارس أسباب وعوامل استدعت وجودها واقتضت إنشاءها . وكان من أهم هذه الأسباب ما يأتي :

١ - تراكم الثقافة وظهور الحاجة إلى هيئة متخصصة لنقلها .

٢ - اختراع الكتابة وظهور الحاجة إلى تعليمها .

٣ - تطور النظم الدينية والحاجة إلى التدريب على الطقوس الدينية وأعمال الكهنوت .

٤ - النمو الداخلي للمجتمعات وما تطلبه ذلك من إعداد قيادات لتوجيه نشاط المجتمع وإدارته .

٥ - التهديد بالغزو الخارجي وظهور الجيش كمنظمة رسمية وما تطلبه ذلك من إعداد قيادات عسكرية تتولى القيام بالأعمال والأنشطة التي يتطلبها .

٦ - الصراعات الاجتماعية الداخلية وما يتصل بهذه الصراعات من وجود أيديولوجيات ومذاهب فكرية مختلفة وما ترتب على ذلك من تهديد للقيم التقليدية والمعتقدات الراسخة وضرورة المحافظة على التراث وتقبله من خلال هيئة متخصصة .

٧ - تقسيم العمل وما استدعاه من تعليم الفنون الصناعية والمهارات الفنية .

وليست المدرسة وحدها كما هو معروف هي التي تقوم بعملية التربية ونشر الثقافة ، وإنما هي أحد المصادر الكثيرة التي تقوم عليها التربية والتعليم ، إلى جانب الأسرة والمسجد أو الكنيسة وجماعة الرفاق أو الصحبة ووسائل الاتصال الجماهيرية من مسرح وسينما وإذاعة وتليفزيون ومطبوعات ومنشورات والمنظمات الاجتماعية،بل والمناخ الفكري العام للمجتمع بكل قطاعاته وقواه المعلمة. وهكذا كان ظهور المدرسة في فترة متأخرة عندما توفرت لها الظروف الملائمة لقيامها .

الجذور التاريخية لظهور المدرسة :

يمكن تعريف المدرسة في المجتمعات المعاصرة على اختلاف شاكلتها بأنها منظمة تتطلب من التلميذ الذي يلتحق بها أن يكون متفرغا لها وأن يكون في سن معينة ، وأن يكون تعلمه في فصول دراسية تحت إشراف وتوجيه المعلم لدراسة منهج تعليمي متدرج المستويات . ونحن إذا نظرنا إلى المدرسة في الماضي نجد أن غالبية المدارس في الدول المختلفة بما فيها دول أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن مدارس بهذا المعنى . لماذا ؟ :

١ : لأن المدرسة الابتدائية في الدول الأوربية على سبيل المثال لم تكن مدرسة عامة آنذاك ، ولم تكن تتطلب التفرغ الكامل من التلميذ . فمعظم التلاميذ في المناطق الريفية كانوا يذهبون إلى المدرسة لأيام محدودة في السنة . وكانت الممارسة الشائعة آنذاك ذهاب التلميذ إلى المدرسة يوما بعد يوم أو لمدة فصل دراسي واحد ، أو لعدة أسابيع قليلة في السنة . وفي الدول الاسكندينافية كان تعليم الأبناء في المنزل مكملا لتعليمهم في المدرسة . وكان من المعروف أن مسئولية تعليم الطفل مهارات ومبادئ القراءة تقع على عاتق الأسرة والمنزل .وأصبح تعليم هذه المهارات مسئولية المدرسة الابتدائية .

٢ - لأن تحديد سن معينة للتلميذ لحضور المدرسة لم يكن معمولا به في البداية وإنما حدث هذا التحديد بالتدريج فيما بعد . وحتى قرن مضى كان سن الدخول أو الالتحاق بالمدرسة وسن الانتهاء منها مرنا وغير محدد بدقة .

٣ - لأن الوضع الراهن لنظام التدريس بالفصل قد أخذ صورته بالتدريج مع تزايد تجانس أعمار التلاميذ ومستويات تحصيلهم في الفصل الدراسي الواحد . وقد سبق أن أشرنا إلى أن التعليم في المنزل كان يسبق التعليم في المدرسة أو يصاحبه . كما كان نظام " العرفاء " الذي يقوم بموجبه أحد التلاميذ النجباء في الفصل بتعليم باقي زملائه كان شائعا ومعمولا به في أوربا لاسيما الجزء الغربي والشمالي منها خلال القرن التاسع عشر . ومن ناحية أخرى نجد أن تكنولوجيا التعليم الحديثة غيرت من الدور التقليدي للمعلم.

٤ - لأن المنهج المتدرج في شكله الحالي يعتبر تطورا حديثا . وفي الماضي كان

التلاميذ من مختلف الأعمار يتعلمون في فصل دراسي واحد وفقا لمنهج له تسلسله الخاص.وفيما بعد بدأ بالتدريج وضع منهج خاص لكل فصل دراسي

٥ - لأن حجم المدرسة قد نما من المدرسة الصغيرة ذات الفصل الواحد إلى مدرسة متعددة الفصول . وهكذا كبر حجم المدرسة مع تزايد العمران ونمو السكان وحركة التصنيع . وقد صاحب هذا التطور نمو مطرد في أعداد التلاميذ وأعداد المعلمين . كما صاحبه أيضا إطالة سن بقاء التلميذ في المدرسة وإطالة اليوم المدرسي أيضا .

٦ - لأن أهداف المدرسة قد نمت واتسعت في منظورها . وإذا كانت مدرسة الأمس معنية بتعليم مهارات الاتصال الأساسية الثلاثة وهي : القراءة والكتابة والحساب ، فإن مدرسة اليوم أصبح من واجبها التثقيف والتربية وتنمية الشخصية والعقلية المتفتحة ، والتفكير النقدي والابتكار وتحمل المسئولية ومعرفة الدور الاجتماعي لكل من الذكر والأنثى ، والإعداد لسوق العمل وتنمية المواطنة الصالحة بصفة عامة . ووجد إلى جانب المعلمين أعضاء آخرون جدد مثل المشرف الاجتماعي والطبيب المدرسي والأخصائي النفسي والموجه التربوي والفني والمتخصص في الأجهزة والتكنولوجيا الحديثة .

٧ - لأن نمو النظام المدرسي قد أدى إلى وجود أنظمة رئيسية وأخرى فرعية . وصاحب ذلك تعقد النظام نفسه في بنائه وهيكله ووظائفه ونظام إدارته والإشراف عليه ونظام تمويله . وتطلب ذلك الاستعانة بأعداد كبيرة من الإداريين من مديرين ومنفذين وعاملين في الشئون الإدارية والمالية والسكرتارية والخدمات ، وأدى ذلك إلى وجود هرم للسلطة يتربع في أعلاه وزير للتعليم وتحته سلسلة من الحلقات التنظيمية المتدرجة على المستويات المختلفة القومية منها والإقليمية والمحلية .

٨ - لأن نمو النظام المدرسي وتشابكه في بنائه الهرمي والتنظيمي الذي أشرنا إليه أوجد نظاماً للإشراف أكثر إحكاما وانضباطا . وقد ساعد ذلك على توحيد طابع النظام من حيث معاييره ومستوياته وأسلوب عمله . ووجد نظام للتأكد من التزام العاملين بالعمل وفق هذه المعايير والمستويات . وهكذا وجد نظام للتفتيش الفني والإداري والتوجيه التربوي في المدارس.

الفصل الثالث

التربية في مصر القديمة
أو التربية في مصر الفرعونية

مقدمة :

يعتبر المصريون القدماء من شعوب الشرق القلائل والأوائل الذين بنوا لأنفسهم حضارة كبرى مثلهم في ذلك مثل الصينيين والبابليين والآشوريين والفرس . وتعتبر الحضارة المصرية القديمة أساس الحضارة الغربية والأوربية. فالإغريق وهم أعرق شعوب أوربا على الإطلاق يعتبرون المصريين معلمين لهم في العلوم والدين بصفة خاصة . ومنهم تعلموا عقيدة خلود الروح والبعث ويوم الجزاء أي الثواب والعقاب بعد الموت . بل إن قدماء اليونان أنفسم يعترفون بأن عظماءهم من أمثال فيثاغورس وأفلاطون مدينون بأعظم نظرياتهم لمصر القديمة وبتبعية فلاسفتهم في الدين والأخلاق للنظريات والأفكار المصرية . وفي ذلك يقول أحد الباحثين :

« ظلت مصر القديمة حتى وقتما آذن مجدها بأفول تعتبر لدى أغلب من وفدوا عليها أو كتبوا عنها من الإغريق مهد الرقي وكنز الحضارة . وكان من ذلك أن ذكرت عنها " الأوديسا " - وهي من أقدم مصنفات الإغريق - أنها بلد الأطباء أحكم أهل العالم . ثم تواترت بعدها روايات مؤرخيهم تذكر أن حكمة مصر كانت الملهمة للمشرع " سولون " وللفيلسوف "طاليس " الذي تعلم من أسرار كهنتها ، ونقل عنهم الهندسة إلى مواطنيه الإغريق . و"بيتاجوراس " الذي نصحه أستاذه "طاليس " بأن يتم دراسته مع الكهنة المصريين فقضى بمصر فيما يقال نحو ٢٢ عاما يتعلم الفلك والهندسة في معابدها . و"أفلاطون " الذي قيل إنه استعان على نفقات رحلته إليها ببضاعة من الزيوت حتى يتعلم فيها الحكمة واللاهوت والعلوم . وتلميذه " بودكسوس " الذي قضى حينا بمصر يتعلم الفلك بها » . (عبد العزيز صالح : ص ٣٥١) .

وقد تعدى هذاالتأثير إلى الرومان . فقد كانت آلهة المصريين وأفكارهم الدينية شائعة في روما على الرغم من معارضة الدولة لها . وإلى جانب تأثير

الثقافة المصرية القديمة على الفكر اليوناني والروماني كان لها أيضا تأثير على العبرانيين والفينيقيين والفكر اليهودي والمسيحي لاسيما فيما يتعلق بفكرة البعث والخلود .

لقد لعب النيل منذ القدم دورا رئيسيا هاما في حياة مصر . فهي دون شك "هبة النيل " كما وصفها هيوردوت المؤرخ اليوناني القديم . فقدجعل النيل من شمال البلاد وجنوبها وحدة واحدة ، وعلى شاطئيه يتركز السكان . ولذلك كان النيل منذ القدم العامل الرئيسي في تشكيل اقتصاد مصر ووحدتها السياسية والإدارية على أساس مركزي . كما قامت الزراعة كمنشط أساسي للسكان وما يرتبط به من أنشطة أخرى كضرورة الاحتفاظ بالمياه وشق الترع والقنوات وإقامة الجسور وكذلك تربية الحيوان للاعتماد عليه في الزراعة والاستفادة منه .

وكان للمصريين تجارة مع جيرانهم من الشعوب في كريت وبحر إيجه واليونان إلى جانب علاقتهم مع البلاد التي فتحوها مثل النوبة وسوريا والعراق . وعرف المصريون بعض العلوم ولاسيما التي لها صلة بالحياة العملية وفي مقدمتها الفلك لارتباطه بحساب مواعيد فيضان النيل والاحتفالات الدينية . وكذلك ما يتصل بعلوم الهندسة والبناء وكذلك الطب وكان يرتبط بالسحر والخرافات . فقد كانت الأمراض تعزى إلى الآلهة ودخول كائنات غيبية فوقية إلى جسم الإنسان ، وكان الأطباء عادة من رجال الدين . وكان يستخدم لعلاج بعض الأمراض أدوية مثل الخل وزيت الخروع والعسل والأدهنة وغيرها . وقد استطاع المصريون أن يتوصلوا إلى استخراج بعض الأدوية من النباتات واستخدامها في علاج الأمراض .

وقد ازدهرت الفنون في مصر القدية سواء ما اتصل منها بصناعة العاج أو الخشب أو المعادن أو الأحجار أو النسيج . وتطورت كثير من هذه الفنون مرتبطة بالمعابد والطقوس الدينية . وأضفى المصريون على آلهتهم العلم والمعرفة فردّوا إليهم الكثير من العلوم والمعارف واعتبروهم واضعين لأصولها . واعتقدوا أن التزود بالعلوم هو نوع من التعبد يتقربون به إلى الآلهة في الآخرة . أما من ينصرفون عن العلوم فسيحل بهم العقاب والعذاب لأنهم انصرفوا عن كلمات وعلوم الآلهة . واعتقد قدماء المصريين أن المعرفة بأسماء الآلهة تقي الإنسان شر العاقبة في الآخرة وأن المعرفة أعظم فائدة للإنسان .

سلطان الدين :

كان الدين عاملا رئيسيا في حياة المصريين . إذ أنهم عبدوا كثيرا من الآلهة. ومايقرب من تسعة أعشار الآلهة المصرية القديمة كانت من الكواكب : "رع" إله الشمس و "هابي " أو " حابي " إله النيل و " جيب " إله الأرض و " نون " إله المحيط أو اليم . وكانت الشمس تعبد وكذلك النيل لارتباطهما بالنماء والزرع والحياة . وإلى جانب ذلك كانت هناك آلهة من الحيوان والإنسان مثل الثور المقدس وأوزيريس الإله النسري وهو ملك الخصب والنماء ارتبطت به خيرات النيل وازدهار الفنون . كما أنه أصبح " قاضي الموت " . وكان الملوك الفراعنة آلهة في حياتهم وبعد موتهم . وعلى الرغم من تعدد الآلهة كانت هناك دعوات لعبادة إله واحد مثل ما فعلته مدرسة عين شمس حين نادت ببطلان كل عبادة إلا عبادة إله الشمس . ومثلما صنعه أخناتون (أمنحوتب الرابع) حين ثار على كل المظاهر الوثنية وأزال التماثيل من المعابد وأمر بعبادة إله واحد له مظهران : الشمس في السماء والملك على الأرض . وكانت الثقافة المصرية القديمة محكومة بسلطان الكهنة القوي ، إذ كانوا يتحكمون في كل شيئ تقريبا باعتبارهم مصدر المعرفة. وكانت الثقافة المصرية دينية في طابعها العام . وتطور الأدب المصري القديم في إطاره الديني لدرجة يمكن أن نقارنه بالكتب المقدسة لدى بعض الشعوب الأخرى . وتضمنت الكتب القديمة الحكمة المصرية واحتفظت بها .

وكانت الدولة المصرية القديمة دينية في طابعها العام وعلى رأسها فرعون الذي يمثل السلطة العليا ومعه الكهنة ورجال الدين الذين تحكموا في تربية الشعب وتوجيهه باعتبارهم الطبقة المتعلمة التي تسيطر على الكلمة المكتوبة . وكانت الفكرة الرئيسية للدولة والنظام السياسي تقوم على أساس أن إرادة الحاكم وحدها هي التي تتحكم في تسيير أمور الدولة وتوجيهها . وهو ما يمثل العقيدة المصرية التي تجعل كل شيء في خدمة الحاكم أي فرعون سواء كان ذلك في شن الحروب أو بناء المباني الضخمة وتسخير العبيد لخدمته .

كان من أهم الأفكار التي تدور حولها الحياة المصرية "فكرة الموت " ويعتبر كتاب الموتى مرجعا رئيسيا للقيم الاجتماعية المصرية التي كانت سائدة وهو يرتبط بأوزيريس قاضي الموتى الذي يحاكم ويحاسب هذه الروح . وكتاب الموتى وثيقة تعود إلى الحقبة ما بين القرنين ١٥ ، ١٣ ق . م . ويلخص الفصل ٧٥ منه

المبادئ الأخلاقية التي يجب إتباعها للحصول على رضى قاضي الموتى وهي : الامتناع عن غش الناس أو غش الآلهة (في القرابين) ، والامتناع عن الكذب ، وعدم اضطهاد الكادحين والمساكين والعبيد والضعفاء والأطفال ، ومساعدة البؤساء، والعمل وإطاعة القواعد الاجتماعية لاسيما مايتعلق منها بحق الملكية .

وفي الفصل الثلاثين من الكتاب نجد أحد الموتى يخاطب قلبه لاعتقاده بأن هذا القلب هو أشد ما يخشى جانبه لأنه يخشى أن يفضح خطاياه يقول : « أيها القلب الذي كنت أمتلكه على الأرض لاتكن خصمي أمام القدرة الإلهية » .

كان لابد من الاحتفاظ بالجسد سليما حتى تعود إليه الروح . لأن المصريين القدماء اعتقدوا برجوع الروح إلى الجسد وهي فكرة " الكا" أو القرينة . ولذا كان لابد من الاحتفاظ بالجسم سليما بتحنيطه ووضع بجواره الطعام لاعتقادهم بأن " الكا" أو " القرينة " تحوم حول الجسد بعد موته ، وأن هذا الطعام تأكل منه ليساعدها على الحياة . ولذلك نشطت حركة تحنيط الجثث ودفنها وأصبحت تمثل صناعة مزدهرة جذبت إليها كثيرا من العاملين . كما زادت من ثروة رجال الدين والمعابد . وأصبحت الطقوس الدينية عملية على جانب كبير من الأهمية يشترك في أدائها الفقير والغني على السواء .

أهداف التربية :

اهتم المصريون القدماء بالتربية والتعليم . ويقول " ماسبيرو " المؤرخ المعروف إن مصر كانت أكثر بلاد العصور القديمة عناية بالتعليم . لقد كان الهدف من التربية الفرعونية ثقافيا ودينيا ومهنيا . ونظرا لتغلغل الدين في كل الحياة المصرية فقد كان هو الأساس الذي تدور حوله الأنشطة الثقافية والمهنية الأخرى . ويمكن القول بأن التربية كانت تسعى إلى تأكيد سيطرة الحاكم ورجال الدين من ناحية ، وتعلم الأفراد الذين يستطيعون القيام بالأنشطة المختلفة كخدمة الحكومة أو المعابد أو القيام بالأنشطة المهنية والفنية المختلفة من ناحية أخرى .

كانت المدارس في مصر القديمة تعلم أبناء الطبقة العليا أساسا ذلك أن عامة الشعب كانوا يقومون بتدريب أبنائهم أو أقاربهم على شئون الحياة المختلفة منذ الصغر . وكان التعليم في مصر القديمة مفتوحا أمام الإناث أيضا لتعلم القراءة والكتابة . والملكات اللاتي وصلن إلى العرش في مصر القديمة أخذن من التعليم

بنصيب كبير وقد أطلق المصريون على الكتابة إسم "ربة" مما يدل على مكانة المرأة في المجتمع المصري القديم . وهناك أمثلة كثيرة لنساء متعلمات ولكنها تعتبر قليلة إذا ما قيست بالأمثلة الموجودة بالنسبة للرجال . وقد وصلت المتعلمات من السيدات إلى مراكز مرموقة في الدولة وخاصة عندما كانت تتولى العرش إمرأة فكانت عندئذ تتولى سيدة خاصة كتابة رسائلها .

وكان لتعليم الكتابة أهمية كبرى وكان مقصورا على الذين يعدون للمهن المختلفة مثل الكهانة والطب والهندسة والجيش . وهي مهن أبناء الطبقة العالية . ولذا كان التعليم في المدارس خاصا بهم ، وإن كان ذلك لم يمنع ذوي القدرات العالية من أبناء الشعب من فرصة تعلم القراءة والكتابة بهذه المدارس .

وإلى جانب الاهتمام بتعليم الكتابة كهدف رئيسي استهدفت التربية الفرعونية أيضا تنمية القيم والمثل العليا في نفوس الناشئة الصغار وكان أهم هذه القيم احترام النظام الاجتماعي القائم والتحلي بالفضيلة والشجاعة والإلتزام بالسلوك الاجتماعي . وكان يتم تعليم هذه القيم الخلقية من خلال تعريف الأطفال بمجموعة من الحكم والأمثال الخلقية المتوارثة عن الحكماء والآباء والأجداد. ويقوم الأطفال بنقل هذه الحكم والأمثال في كراساتهم عدة مرات لتدريبهم في المدارس.

مهنة الكتابة :

يعتبر المصريون القدماء من أوائل الشعوب القديمة التي توصلت إلى اختراع الكتابة . فكانوا يعتقدون أن الكتابة من اختراع الإله "توت" وأنه علمهم إياها. وقد ساعد وجود نبات البردي في مصر على تقدم الكتابة وانتشارها . وكانت تستخدم أول الأمر لأغراض دينية ثم اتسع نطاق استخدامها في أغراض أخرى. وكانت الكتابة مقصورة على فئة قليلة تمثل الطبقة العليا المتصلة بالملوك والكهنة

كان الهدف الرئيسي من التعليم بالمدارس هو تعليم الكتابة لأهميتها الكبرى بالنسبة للمجتمع الفرعوني القديم . فقد كانت الكتابة ضرورية لتصريف شئون الحكومة والقضاء والدين والتجارة وإدارة البلاد . كما كانت الكتابة ضرورة فرضتها الحاجة إلى تبادل الرسائل والوثائق الرسمية بين مصر والدول المجاورة وبين الحكومة والنبلاء ورجال الأعمال . ولم يكن الفراعنة وحدهم يستخدمون الكُتّاب بل استخدمهم كبار الموظفين أيضا .

لقد اعتقد قدماء المصريين أن كتابة النصوص الدينية تحقق ا لسعادة لأصحابها في آخرتهم . ووجدت طائفة من المتعلمين للقيام بكتابة هذه النصوص على جدران المعابد والمقابر وسطوح التوابيت . ووجد أيضا كتاب آخرون يكتبون النصوص الدينية على أوراق البردي .

كما أن الكهنة كانوا يستخدمون الكتابة في الأمور الدينية وتصريف شئون المعابد . فقد كان الكهنة أنفسهم كتابا مهرة لأنهم القائمون على الوثائق المقدسة وهم حفظة الدين والعلوم . كما كانت معابدهم مدارس للعلوم الدينية المقدسة . يضاف إلى ذلك أن كل معبد كان شأنه شأن الحكومة يدبر الضياع الواسعة ويجني الضرائب . وهي أمور كانت تتطلب الكتابة .واهتم المصريون القدماء بالكتابة للموتى على الجدران الداخلية للأهرامات والقبور وعلى أكفان الموتى . وكان "كتاب الموتى " يكتب على هذه الجدران أو الأكفان أو لفائف البردي التي توضع في القبور .

وهكذا كانت الكتابة عملية هامة في الحياة المصرية القديمة الدينية والمدنية على السواء . وأصبح إسم الكاتب المصري القديم رمزا هاما للحياة في مصر القديمة . وكان كل من يتعلمها يجد الطريق أمامه مفتوحا للثروة والوظائف . بل إن إسم الكاتب كان يقرن بأسماء الوظائف الكبرى فرئيس الجيش هومراقب الجنود وكاتب الجيش . وكل قاض هو " كاتب أعظم " . وكبير القضاة " مراقب كتابة الملك".وهكذا احتلت الكتابة مكانة هامة في المجتمع المصري.وكانت تعتبر مهنة عظيمة تجلب لصاحبها الحظ والثروة والسعادة ومن هنا كان الاهتمام بتعليمها.

التعليم المدرسي :

كان على المصريين أن يتقدموا خطوة أكثر من مجرد النمط التربوي الشائع في المجتمعات البدائية القائم على تقليد الكبار ومحاكاتهم . إذ أن الثقافة المصرية وصلت إلى درجة من النمو كان من الضروري معها ظهور نوع من التربية المدرسية أو المنظمة . وكان الهدف الرئيسي من ظهور هذه المدرسة ثقافيا لتعليم اللغة والأدب والأفكار . وقد كانت الفنون والصناعات مرتبطة بالدين كما أشرنا. ولذا كانت تحت سلطان الكهنة حتى ولو لم تكن تعلم في المدرسة . وكانت المدارس ملحقة بالمعابد حيث يقوم الكهنة بدور المعلمين أو ملحقة بدور الحكومة حيث يقوم الموظفون بالتدريس . وبالإضافة إلى الهدف الثقافي للمدرسة كان

هناك هدف آخر عام للتربية المصرية القديمة هو الهدف المهني لتعليم مهنة أو صنعة أو حرفة وكلها كانت في أيدي الطبقة المتوسطة أو الدنيا من الكهنة . وكان تعليم الطب في أيدي فئة خاصة من الكهنة يمثلون مهنة الأطباء أو الحكماء وكانت الطبقة العليا من الكتاب الإداريين تتمثل في القضاة والمحامين لمعرفتهم بالقوانين . ولذا فإنها كانت تمثل طبقة القانونيين

المنهج المدرسي :

كان المنهج المدرسي محكوما بالطبع باحتياجات الحضارة المصرية القديمة . كما كان متفقا مع أغراض التربية المصرية في تعليم الكتابة والإعداد للمهنة وتنمية القيم الخلقية . وقد تضمن المنهج بالطبع تعليم القراءة والكتابة . وكان المصريون القدماء يعتقدون أن الرموز الكتابية قد اخترعها الإله " توت " وعلمها للناس الأوائل في وادي النيل كما أشرنا .

ونظرا لأن تطور اللغة المكتوبة كان أبطأ من تطور اللغة المنطوقة أو لغة الحديث فقد وجدت لغتان مع مرور الزمن : لغة الكتب والسجلات المكتوبة ولغة الناس أو لغة التخاطب . وهو وضع يماثل الوضع في أوربا في العصر الوسيط عندماكانت اللغة اللاتينية هي لغة السجلات والكتب بينما كانت هناك لغة للحديث ولهجات محلية . وهو ما يماثل الوضع الحالي بالنسبة للغة العربية كلغة للكتابة واستخدام اللهجات العربية المحلية في التخاطب .

وقد كانت الكتابة طريقا للدخول في الوظائف الراقية وحياة النعمة والرفاهية في المجتمع المصري القديم . وكانت مهنة الكتابة الخطوة الأولى لتقلد المناصب الرسمية . وكان الكتاب يجدون الطريق ممهدا أمامهم للمناصب الرفيعة كما أشرنا

ومع اتساع المملكة المصرية واحتكاكها بالشعوب الأخرى كان على المصريين أن يتعلموا لغات هذه الشعوب .ومن هنا كان على المنهج المدرسي أن يعلم الأولاد رموز اللغات الأجنبية وكيف يحتفظون بسجلات الدولة والمعابد . وكان لكتابة الرسائل إهتمام ومكانة كبيرة في تعليم الكتاب

وقد اكتشفت كثير من الكتب المدرسية المصرية تحتوي على القصص الخيالية وقصص الرحلات وقصص عن الأعمال العظيمة للرجال العظام في الماضي . كما تضمنت هذه الكتب أيضا كتب الأمثال والتعليم الخلقي (التهذيب) والأخلاق

الحسنة . كما اكتشفت أيضا كراسات التلاميذ وعليها تصحيحات المعلمين .

ويشير "ماسبيرو" (Maspero : p. 288) عالم الآثار المعروف إلى وجود كراسات مدرسية كان التلاميذ يستخدمونها في الأسرتين ١٩ ، ٢٠ ، وأن هذه الكراسات تضمنت موضوعات مختلفة ففيها نماذج للطلبات والرسائل والأعمال وأشعارالمديح الموجهة للرؤساء وكذلك بعض التمرينات التي يقوم بها التلاميذ للتدريب على الكتابة . وتوجد بهذه الكراسات تصويب المدرس لأخطاء التلاميذ مكتوبا في أعلى الصفحات وأسفلها بخط واضح يدل على المهارة ويختلف اختلافا واضحا عن خط وكتابة التلاميذ . وكان التلاميذ أيضا يكتبون عن موضوعات مختلفة من إنشائهم مثل رحلات فرعون وكبار موظفيه والشئون الخاصة ببناء المعابد والمدن وإصلاح السفن.كما كانوا يتخيلون في كتابتهم ما يكتبه المرءوسون من الموظفين إلى رؤسائهم وردود الرؤساء وتقديم الشكاوى وغيرها من الموضوعات. ويقول أحد المؤرخين إن التلاميذ كانوا يوجهون ما يكتبون في هذه الموضوعات إلى معلميهم أو لفرعون أو لأحد الموظفين وأنه قد وجدت كتابات وجه التلاميذ فيها لأنفسهم خطابا بالإهمال أو التكاسل وأنهم لهذا يستحقون أن يضربوا مائة جلدة (Eby : p. 83) .

وكان التلميذ يقدر على أساس عدد الصفحات التي يقوم بنسخها في اليوم والتي كانت تصل في الغالب إلى ثلاث صفحات . وكان المعلم يقوم بتصويب الأخطاء في أعلى هذه الصفحات وأسفلها كما سبق أن أشرنا . كما كان الكهنة يقومون بكتابة تعليقاتهم على النصوص الدينية وكانوا يعلمون التلاميذ في مدارس المعابد معاني هذه النصوص ويشرحونها لهم .

وإلى جانب تعلم الكتابة والأمور الأساسية المتعلقة بتعلم المهنة كان التلاميذ يلقنون أصول الأخلاق والسلوك الاجتماعي كماكانوا يقومون بتعلم العزف على الآلات الموسيقية المختلفة والتدريب على الغناء لاسيما الغناء الديني وكذلك التدريب على الرقص والسباحة . وكانت طريقة التعليم تقوم على أساس التلقين والتقليد والحفظ والتكرار والممارسة .

طريقة التعلم :

كانت الطريقة التي يتعلم التلميذ المصري القديم من خلالها تقوم على

التقليد والحفظ والممارسة كما أشرنا . وكانت تستخدم ألواحاً من الخشب أو الفخار للكتابة عليها . وبعد أن يكتسب التلميذ بعض القدرة أو المهارة في الكتابة على اللوح ينتقل إلى الكتابة على ورق البردي . وكان التلميذ بعد أن يتقدم في مدرسة الكتابة يقضي بعض وقته في المصالح الحكومية ليمارس العمل الذي يعد له أي الذي سيمارسه في المستقبل . أي أنه كان يتعلم عن طريق الممارسة . وهو مبدأ تربوي سليم حتى بالنسبة للعصورالحديثة . وكانت الآداب تعلم عن طريق حفظ النصوص من الكتب المقدسة . أما مناقشة وشرح معاني هذه النصوص فقد كان ميزة مقصورة على الكهنة الكبار في المعابد .

وكان النظام قاسيا في المدارس . وقد جاء في أحد مخطوطات البردي « أن للشباب ظهورا » وهم يلتفتون للدرس إذا ضربوا « لأن أذني الشباب في ظهره » وكتب تلميذ إلى مدرسه يقول « لقد ألهبت ظهري فوصل تعليمي إلى أذني » . (ديورانت : جـ ٢ ص ١٠٦) . وكان يستخدم الضرب كعقاب على الإهمال وكوسيلة لحفظ النظام . كما أن مخالفة هذا النظام أو إهمال الواجبات المدرسية كان يقتضي أحياناً تقييد التلميذ بالحبال وإرساله إلى سجن المدرسة والمعبد لمدة قد تصل إلى ثلاثة شهور . وهذا لايعني أنه لم تكن هناك النصيحة والتوجيه كوسيلة لإرشاد التلاميذ وتقويم سلوكهم .

نظام التربية المصرية القديمة :

كانت الأمهات تقوم بتربية أطفالهن حتى سن الثالثة . وفي أوائل سنوات عمرهم كان الأطفال - كما يروي المؤرخون - يسيرون عرايا حفاة الأقدام تعويداً لهم على الخشونة حتى تبدأ مرحلة تعليمهم . وكان المنزل المكان الأول الذي يتلقى فيه الأطفال قواعد الحياة والسلوك من والديهم وأقرانهم .

كان بعض الأطفال بين الرابعة والخامسة يلتحقون بالمدارس وكانوا يلتحقون بالأقسام الداخلية . وكانت هذه المدرسة هي مدرسة "الكتاب" أي الذين يتولون الكتابة . وكانت تدار بواسطة إدارة الحكومة أو المعابد . وفي هذه المدارس يبقى الطفل حتى سن ١٦ أو ١٧ سنة حيث يدرس مهنة أخرى . وعندما يصل التلميذ سن ١٣ أو ١٤ كان يقضي جزءا من يومه في التدريب على العمل الذي سيقوم به في أجهزة الدولة أو الحكومة .

كان لأبناء البلاد بما فيهم أبناء الفراعنة معلمون خصوصيون يقومون بتعليم الأطفال الكتابة وتدريبهم على أصول الحياة الأرستقراطية . وكان هناك مدارس خاصة بأبناء الملوك والأمراء والكهنة وكبار الكتاب . وكانت هذه المدارس تهيئ الأطفال لتولي الحكم وقيادة الجيش وأمور الكهانة . وإذا أراد التلميذ أن يعد نفسه لأن يصبح من الكهنة فعليه عند سن السابعة عشرة أن يلحتق بالمعابد ليدرس ما يؤهله لذلك . وتختلف مدة الدراسة حسب الفرع الذي يريد أن يتخصص فيه فقد كان الكهنة يتولون أيضا كثيرا من الأنشطة المهنية .

وكانت المعابد تعتبر مدارس عالية . وكانت مدينة " أون " (هليوبوليس) أكثر المدن شهرة في العالم لاسيما في الطبيعة والفلك والرياضة التطبيقية والهندسة . وقد ذكر المؤرخ الإغريقي "هيرودوت " أن كهنة هليوبوليس كانوا أكثر الكهنة تقدما في التاريخ . ولكن نجم "أون " بدأ في الذبول عندما بدأت الإسكندرية في الظهور . وتحولت الدراسة والمكتبة إلى الإسكندرية التي أصبحت شهرتها فيمابعد تعلو كل شهرة . وقد وجدت معابد كثيرة اشتهرت بعلومها من أهمها معبد الكرنك في طيبة ومعبد ممفيس وأدفو وتل العمارنة .

تعليم الحرف والصناعات :

كان هناك نظام التلمذة الصناعية للأطفال الذين يريدون أن يتعلموا حرفة أو صناعة . وكان التدريس على هذه الحرف والصناعات يتم خارج المدارس الرسمية للحكومة والمعابد . وكان الأب يعلم مهنته لأبنائه إذ كانت مهارات المهنة تعتبر سرا تحافظ عليه كل أسرة ولاتنقله إلا لأبنائها .

وكانت المهن تتوارث في داخل الأسرة الواحدة وتنقل من الآباء إلى الأبناء عن طريق التدريب والممارسة العملية . فكانت مهنة كتحنيط الموتى مثلا يعلمها الأب لإبنه . وهذا يعلمها لأبنائه من بعده وهكذا ، وكذلك الأمر بالنسبة للمهن الأخرى التي كان من أشهرها في مصر القديمة الطب والهندسة والكهانة والجندية. أما في المدارس فكان تعليم الحرف والصناعات في أيدي الطبقة المتوسطة والدنيا من الكهنة كما سبق أن أشرنا .

الفصل الرابع

التربية في الهند القديمة

مقدمة :

تعتبر الهند مثلها مثل مصر القديمة نموذجا طيبا لسيطرة الدين ورجاله على كل أنشطة المجتمع برمته . ويطلق على الهند " أرض الآلهة " لكثرة آلهتها وإن كان عددها لايفوق عدد آلهة مصر . وكان الدين ونظام الطبقات الصارم محددين لنظام التربية في الهند القديمة كما سنرى .

يرجع أصل الهنود حسب بعض الآراء إلى شعوب الجنس السامي التي كانت تسكن أودية الهند الخصبة . وكونوا لأنفسهم حضارة متقدمة وكانت لهم علاقات تجارية مع بلاد ما وراء النهرين ومصر وتكريت . وقد عبد سكان وادي الهند الحيوانات والطيور والأشجار . وهي عادة مازالت حتى الآن . ومن المحتمل أن يكون الهنود قد استعاروا أو أخذوا كثيرا من هذه الآلهة من السكان البدائيين الأولين . وكثير من الأنهار لها صفة التقديس لديهم لاعتقادهم بأنها تملك قوة غسل الذنوب .

وقد تعرضت الهند لغزو الشعوب الأروبية الوافدة من وادي الدانوب في أوربا . وفرضوا على البلاد حكمتهم ونظامهم وثقافتهم وحملوا معهم كتاب "الفيدا " . وهو كتاب ديني من أربعة أجزاء يحوي كثير من الآلهة والأوراد والأناشيد والطقوس الدينية . وكلمة الفيدا نفسها تعني العلم بما هو مجهول عن طريق الدين . وسفر الفيدا معناه الحرفي " كتاب المعرفة " . ويشير المؤرخون إلى وجود علاقة بين آلهة الفيدا وآلهة الإلياذة والأوديسه عند الإغريق من حيث تشابهها في البساطة والقرب من صفة الإنسانية . وكانت الدراسة الكاملة للفيدا بأجزائه الأربعة تتطلب ١٢ سنة لكل جزء أي أن الدراسة الكاملة كانت تتطلب ٤٨ سنة . ولذا اقتصرت دراسته الكاملة على البراهمة فقط باعتبارهم رجال الدين . أما غيرهم فكانوا يدرسونه بصورة مختصرة .

ترتب على الغزو العسكري والثقافي الآري أن امتزجت الهند بالثقافة الجديدة. وأصبحت تنتمي لغويا إلى مجموعة اللغات الهندية الأوروبية . ولغتها السنسكريتيتة هي أقدم اللغات الآرية . وأصبحت الهند من خلال انضوائها في

مجموعة الشعوب الهندية الأوربية لها سمات ثقافية مشتركة معهم احتفظوا بها جميعا من ثقافتهم القديمة . من هذه السمات العامة الارتباط الديني للأسرة أو العائلة ووأد البنات وزواج البنات مبكرا وانتحار الأرامل وعبادة الأجداد والقوى الطبيعية . وتؤمن الديانة الهندية القديمة بخلود الروح وتناسخها وحلولها في أجسام أخرى . أي أن للروح دورات حياة في الأجسام التي تحل فيها يتوقف كل منها على نوع الحياة التي سبقت . وهي حياة تكتنفها الشرور والآثام التي تمتليء بها حياة البشر . وقد عرف العرب الهند قبل الإسلام واتصلوا بها . وكانت لهم بها علاقة تجارية يجلبون منها العود والطيب والسيوف التي كانت لها شهرة عند العرب . فلقبوها بالهندية . وأطلقوا على السيف أسماء مختلفة كالمهند والهندي والهنداواني بل وسموا نساءهم " هندا ". وبعد الفتح الإسلامي للهند سنة ١١٩٤م انقسم سكان الهند إلى مسلمين وهندوس وهم الذين لم يدخلوا في الإسلام .

نظام الطبقات :

كان من الآثار الأخرى التي ترتبت على الغزو الآري للهند أن فرض هؤلاء الغزاة نظام الطبقات الذي يخدم أغراضهم ويجعل منهم سادة البلاد . وهو أشبه ما يكون بالنظام العنصري في مجتمعاتنا المعاصرة . وقد أقر قانون مانو Manu وهو أحد حكام الهند (عام ٣٣٠ ق. م .) هذا النظام الطبقي في قانونه المعروف (مانوشاستر) . لأن هذا القانون - الذي يضم كثيرا من التعاليم والتوجيهات ويعتبر من كتابات الهند المقدسة - قد اعترف بكتب الفيدا على أنها خزانة المعرفة. وأكد سيادة البراهمة واعتبارهم حماة الدين ومفسريه . والأساس الذي ينبني عليه هذا النظام الطبقي يقوم على أساس سيادة الدم الآري النقي . أما غيرهم من الشعوب الوطنية التي لم ترتد عن دينها فكانوا خارج هذا النظام الطبقي . أي لايمثلون طبقة وإنما نفاية اجتماعية هم المنبوذون Untouchables . وهو يدل على التمييز العنصري الشديد الذي مارسه البراهمة . ويتكون النظام الطبقي من :

١ ـــ **البراهمة** Brahmans : وهم أعلى طبقة ويمثلون رجال الدين ولهم أموره وشئونه . وكانوا يتحكمون في كل أمور الحياة باعتبارهم مصادر المعرفة . فهم شراح الفيدا الذين خلقوا منها ديانة جديدة سموها البراهمانية نسبة إلى برهمان التي تعني الكينونة ، أو الوجود .

٢ - الشاترية Kshatryas : وكانت لهم شئون الحكومة والجيش والحرب .

٣ - الويشية Vaisyas : وكانت لهم شئون التجارة والزراعة والمهن .

وهذه الطبقات الثلاث السابقة كانت تعتبر من الدم الآري النقي ولذا كانت تحظى بالتعليم المدرسي . وفيما بعد سمح أيضاً للطبقة الرابعة أن تتعلم .

٤ - الشودرية Sudras : ويعتقد بأنهم خليط . ولذا كانت لهم الأعمال الوضيعة. وهي أعمال الخدمة فكانوا يعملون كخدم وعمال وكانت عليهم خدمة الطبقات الثلاث السابقة . وكانوا يشملون معظم السكان الأصليين .

وإلى جانب هذه الطبقات الأربع كانت هناك طبقة من الناس تعتبر خارجة عن نظام الطبقات الأربع السابقة وهي طبقة (الباريا) أو " البنشامية " وهي طبقة المنبوذين كما أشرنا . وكان محكوما عليهم بأن يعيشوا في مجتمعات منبوذة منعزلة . وكانوا يتكونون من القبائل الوطنية من السكان الأصليين الذين لم يرتدوا عن ديانتهم فتحولوا إلى عبيد على سبيل العقاب . كما تشتمل أيضا على أسرى الحرب . ولم يكن لهم أى عمل . ولم يكن أمامهم إلا السرقة والسلب والنهب يرتزقون منها .

ونظام الطبقات هذا هو نظام أبدي يخلد الطبقة التي ينتمي إليها الإنسان بحكم مولده . ومن ثم يتحدد زواجه ومستقبله . ولايجوز لرفيع أن يحالس وضيعاً أو يعامل من هو أقل منه . وكان مجرد لمس المنبوذين يستدعي التطهر على اعتبار أنهم نجاسة . وتذكر الكتب المقدسة للهنود أن الإله براهما قد خلق البراهمة من فمه والشاترية من ذراعه والويشية من فخذه والشودرية من قدمه . ولما كان أشرف الأعضاء في الإنسان وأطهرها ما علا السرة وأحطها ما كان أسفلها لذلك فإن البراهمة هم أشرف الناس جميعاً . لأنهم إنحدروا من فم براهما يليهم الشاتريون ثم الويشيون . أما الشودرية أو المنبوذين فهم خدم للطبقات السابقة . ويرتبط بنظام الطبقات في الهندبما يعرف بعقيدة " الكارما " . ويقصد بها القانون المقدس السماوي الذي ينظم تناسخ الروح في دورتها المتكررة وأن الروح عندما يفنى صاحبها تعود مرة أخرى إلى الحياة في صورة بشر أو حيوان أو حشرة ، وذلك تبعا للأعمال السابقة لصاحبها . وكما أن الكارما هي التي تحدد أصناف البشر فإنها أيضا تحدد جنس الفرد ذكراً أم أنثى .

وضع المرأة :

كانت المرأة تعتبر تابعة للرجل . والرجل يعتبر سيدها . وكان الأب يحمي ابنته في الطفولة . أما في شبابها فمسئولية حمايتها تقع على زوجها . وفي العجز تنتقل المسئولية إلى أبنائها حيث يقوم الأبناء بحماية أمهاتهم . وكانوا ينظرون إلى المرأة على أنها رمز للذنب في حياة سابقة . أي أن الروح أذنبت فعوقبت بكونها إمرأة . ونظرا لأن الذكور هم الذين كانوا يتولون مسئولية الأسرة فإن الإناث لم يكن يرحب بهن . وأحيانا ما كانوا يقتلونهن ويئدونهن . وقد عمل على إذلال المرأة وتخلف مكانتها الاجتماعية عدم أهليتها الدينية وتحريم قراءة الفيدا عليها أو دراستها .وزواجها قبل سن المراهقة في سن صغيرة * وتحريم زواج المرأة الأرملة وانتحارها وهي ما تعرف بعادة " ساتي " Sati وتعدد الزوجات بالنسبة للطبقات العليا ونظام البردة Purda وهي الستار أو الطرحة أي عزل المرأة في حجرة خاصة بها في المنزل وتغطية وجهها بحجاب أو ستارة أو طرحة عندما تكون خارج المنزل .

وكانت أرامل الطبقة العليا يعاملن بصورة أكثر إنسانية من الطبقة السفلى . ومع ذلك فقد كان على أي أرملة من الطبقة العليا التي لم تحرق أن تخلد إلى

---

* مازال الزواج المبكر للبنت سائدا حتى الآن في الهند . وهو يعتبر من العادات القديمة التي تثير الجدل . ومع أن الزواج دون سن الثامنة عشرة محظور قانونا في الهند إلا أن الزواج المبكر يحدث في بعض الولايات بتأييد من سلطاتها . وتشن الصحف الهندية من حين لآخر حملات ضد زواج الأطفال منها حملة شنتها الصحف الهندية مؤخرا قالت فيها إن كبار المسئولين في بعض الولايات الهندية يمنحون تأييدهم الرسمي للحفلات الجماعية لزواج الأطفال ، وأن وزيرا في ولاية راجستان سمح بزواج إبنته وعمرها ١٣ عاما . وفي حفل زواج جماعي في ولاية " مادهيا براديش " تم زواج عدد كبير من الفتيات دون سن العاشرة وإحداهن لم تتجاوز سن السادسة . وقد يصل عدد اللاتي يتزوجن في يوم واحد في بعض الولايات مثل ولاية " راجستان " إلى عشرة آلاف طفلة كما حدث في عام ١٩٧٩ . ويؤخذ النساء والبنات في ملابسهن الزاهية إلى حفلات الزواج في عربات تجرها العجول في طوابير طويلة . ومن الطريف أن عددا كبيرا من البنات ينمن أثناء مراسم الزواج وأنهن لايدركن حقيقة أنهن تزوجن .

الحزن إلى الأبد ، وأن تحرص على قص شعرها تماما ، وألا تشترك في احتفالات الأسرة ، وألا تأكل إلا مرة واحدة في اليوم ، وأن تصوم عن الأكل والشرب يومين كل شهر . وكل هذا بسبب ذنوب المرأة في حياة سابقة لها كان يعتقد أنها هي السبب في موت زوجها . وكان يحرم على المرأة تملك أي شيء من ثروة الأسرة . وعلى الرغم من هذه الممارسات القاسية كان من بين الهنود الأسر السعيدة التي تهنأ بحياتها . فطبيعة الإنسان أقوى من أي قانون . كما أن عادة حرق المرأة أبطلت في القرن السابع عشر على كره من رجال الدين . ولكن الزواج المبكر للبنت مازال سائدا حتى الآن كما أشرنا .

التعليم المدرسي في الهند القديمة :

عرفت الهند التعليم المدرسي منذ عهد بعيد . وكان التعليم يقدم مجاناً بدون أي مصروفات دراسية على الرغم من أن معظم المدارس كانت خاصة غير حكومية. فقد حرمت الكتب المقدسة فرض أي نفقات أو رسوم دراسية على التعليم باعتبار ذلك مخالفة ضد السماء . وكانت المدارس تعتمد في تمويلها على هدايا الطلاب والأموال التي يجمعونها من التسول . ولكن كان هناك بعض معلمي المواد خاصة التي تخرج عن حيز التعليم العام يحصلون على مصروفات دراسية من تلاميذهم . ولم يكن للسلطات السياسية أي رقابة على التعليم . ولم تكن هناك إدارة مركزية للتعليم في يد البراهمة .وهذا لايعني أنه لم تكن لهم سلطة فعلية في توجيه التعليم الخاص بهم أو غيرهم من الطوائف . وقد عرفت الهند القديمة عدة أنواع من التعليم المدرسي من أهمها :

١ - **التعليم الديني الثقافي أو التهذيبي** : كان ينظر إليه على أنه ميزة خاصة لطبقة الكهنة أو رجال الدين وهم البراهمة . وكانت لهم مدارسهم الخاصة كما سنوضح فيما بعد .

٢ - **التعليم الأرستقراطي الهندي** : كان يهدف إلى مواجهة الاحتياجات المهنية الخاصة بطبقة الشاترية والويشة . وهذا النوع من التعليم كان يتم في مدارس البراهمة وتحت إشرافهم .

٣ - **تعليم البوذيين** : هو نوع من التعليم خاص بالبوذيين بهدف إلى تنمية المثل الخلقية والدينية العليا وتربية الأفراد على التنسك والعزلة والزهد . كما

سنعرف بالتفصيل فيما بعد . وكانوا كالبراهمة لهم مدارسهم الخاصة .

٤ - التعليم الحرفي : هو نوع من التعليم لتدريب العمال الحرفيين واليدويين عن طريق نظام يشبه التلمذة الصناعية . وكان كثير من أنشطته يقوم من خلال وتحت إشراف الروابط والاتحادات التجارية والصناعية . فقد عرفت الهند نظام هذه الروابط Guilds على غرار ما شهدته أوربا في العصر الوسيط . وامتد إلى العصر الحديث . وعلى أساس هذا النظام في الهند كان الزراع والتجار والصناع ينظمون أنفسهم في اتحادات وروابط لها قواعد وأصول معتمدة ومعترف بها من الكهنة والملوك . وكانت هذه الاتحادات تقوم بتدريب أربابها والعاملين بها على غرار ما كانت تفعله مثل هذه الروابط في أوربا كما أشرنا . وكان على صاحب العمل أن يعامل المتدرب عنده كأنه أبنه . وعلى المتدرب أن يحترم شخصية سيده وأن يحترم علمه وتعليمه أيضا .

هدف التعليم :

كان الهدف الرئيسي للتعليم في الهند القديمة تبصير الفرد بالنظام الاجتماعي المقدس ومكانه فيه من خلال دراسته للكتاب المقدس " الفيدا " الذي يعني المعرفة . وكان هذا الهدف الذي يتمثل في حياة المنزل والمعابد والمدارس والطبقات الاجتماعية يعتبر هدفا ثقافيا . وكان الفرد يتعلم أن أول واجب له هو نحو النظام الاجتماعي والإلتزام بأساس الحياة والنظام الاجتماعي .

وكان الهندي ينظر إلى أبعد من الأهداف الاجتماعية ليحقق توافقه الروحي بين المجتمع والنظام الكوني المقدس . وإلى جانب هذه النظرة الروحية كانت هناك مطالب الحياة ووافعها . ولذا تضمن التعليم الرسمي المدرسي أغراضا مهنية أيضا . ولهذا كان هذاالتعليم يهدف إلى تدريب رجال الدين والأفراد والتجار وغيرهم وإعدادهم لأغراض عملية وتزويدهم بما تتطلبه هذه الميادين المهنية من معارف ومهارات . وعلى كل حال كان الهندي ينظر إلى التدريب العملي على أنه تابع لتعليم الروح وتربيتها .

وعلى هذا لم يكن التعليم معنيا بالدرجة الأولى باكتساب المعرفة النفعية والمادية . وإنما يسبق ذلك معرفة الكون ككل . ولذا كان من مهام التربية

والتعليم تدريب العقل كوسيلة للمعرفة دون إفسادها بالمعلومات المادية . وكانت طريقة التعليم " اليوجا " - أي النظام - مهمة كطريقة أكثر من كونها محتوى ومضموناً .

المنهج المدرسي :

كان التعليم المدرسي في الهند القديمة يقوم أساسا على دراسة الكتب . وهذا لايعني أنه لم تكون هناك أنشطة مرتبطة بالحياة . وإنما كانت معظم الدراسة تعمد على الكتب التي تمثل سجلا للخبرات الماضية . ومن خلالها يمكن لكل جيل أن يبدأ حياته من حيث انتهى الجيل الماضي . فالإنسان يتعلم من تراثه . والحيوان فقط هو الذي يتعلم من الحياة والممارسة .

وكان الآريون القدماء ينظرون إلى كتب الفيدا والتعليم الذي تحتويه على أنها مقدسة . وأصبحت طبقة البراهمة هي خازنة وحافظة هذا التعليم . وكان على هؤلاء البراهمة أن يحتفظوا بهذا العلم والتعليم ولايكشفون كنوزه لأي إنسان شرير أو حقير .

ومن المعروف أن الدراسات المعرفية والأدبية المكتوبة في الهند قد تطورت بالتدريج مع الزمن عبر القرون والعصور . وكانت الأبجدية وهي من أصل غير معروف بالتأكيد تستخدم قليلا لأغراض تجارية . ولذلك كان التعليم المدرسي قبل ذلك يتم مشافهة وحفظا ، كما كان يفعل العرب القدماء في الشعر . وقد ارتبطت اللغة السنسكريتية بالثقافة الهندية الرسمية . ومن هنا اكتسبت أهميتها على الرغم من أنها بالنسبة للجماهير من الشعب كانت تعتبر لغة ميتة منذ بدأ استخدام الكتابة . وقد ظلت اللغة السنسكريتية اللغة الوحيدة للكتب والمدارس . ومن ثم كان لايعرفها إلا المتعلم فقط . ويتحكم رجال الدين في هذه اللغة باعتبارهم مصادر للمعرفة وملمين بقواعد اللغة وأصولها . وكان لهم تأثير محافظ على الثقافة الهندية .

وكان الآريون القدماء يعتبرون لغتهم من صنع الرب ومقدسة . وأصروا على نقاوة لغة أفراد العائلة " العائلة الأرية " كما نجده في انجلترا حيث تعتبر اللغة دالة اجتماعية على الطبقة التي ينتمي إليها الفرد . وللعائلة المالكة لغتها المعروفة بها . وكان التلميذ يبدأ منذ سن الخامسة في تعلم الدين وحفظ بعض

نصوص الفيدا . كما يبدأ يتعلم الكتابة على الرمال . وبعد أن يتقدم في إجادة الكتابة ينتقل إلى الكتابة على أوراق النخيل ثم أوراق الشجر . وإلى جانب ذلك كان يتعلم الحساب أيضا . وعند سن الثامنة يعهد به إلى أحد رجال الدين ليصبح تلميذه حتى سن العشرين يدرس على يديه الشاسترات أو الفنون الخمس وهي : النحو (علم المفردات أو الألفاظ) والفنون أو (الصناعات) والطب والمنطق والفلسفة (ديورانت : جـ ٣ ص ٢٨٦) . وكان يقضي حوالي ١٢ سنة في دراسته . وكان يمكن للتلميذ أن يترك معلمه في سن ١٦ لينتقل للدراسة بإحدى الجامعات حيث يتعلم الفلسفة والقانون والعلوم والرياضيات والطب والأدب والنصوص الدينية . وكانت التربية الجسمية أو الرياضية تقدم بصورة منتظمة للأفراد والجنود . وكان هدفها الرئيسي عسكريا ومحكومة في محتواها بتقسيمات الجيش إلى جنود وفرسان ومشاة وفيلة . وكانت الحرب والتسلق وقيادة العربة والسباحة واستخدام الأسلحة من بين التدريبات التي يمارسونها . وكان جزء صغيرا من هذا النوع من التربية تحت إشراف البراهمة .

وفي مدارس البراهمة كان الاهتمام الكبير لاسيما للطلبة البراهمة يتركز على دراسة النحو أي الألفاظ والمفردات.فالإله براهما يرتبط بالكلمة ويقترن بها. وهكذا أصبحت الألفاظ والنحو قلب المنهج المدرسي لاسيما للبراهمة . وكان النحو يعتبر علم العلوم والطريق المستقيم إلى السماء والنور الموجه للقساوسة والمحاربين والتجار.كما أنه يساعد على حسن تصريف أمورهم في حياتهم.وهو ما يذكرنا بماكان عليه الاهتمام بدراسة النحو في أوربا في العصر الوسيط كما سنرى

وكان المنهج المدرسي في أول الأمر يتكون من دراسة أحد كتب الفيدا والمواد المتصلة به . وكان يعلم بواسطة قسيس تكون عائلته متخصصة فيه . ومع الزمن كانت كتب الفيدا تدرس في كل مدرسة وبالنسبة للبراهمة كان يعتبر أن هناك ست مواد ضرورية لهم لفهم كتب الفيدا واستخدامات طقوسها . وكانت هذه المواد الست تسمى بالفيدانجات Vedangas أي المواد المرتبطة بها وهي : الصوتيات ، النحو ، الاشتقاق (أصل الكلمات) ، الفلك ، الطقوس الدينية ، الغناء والموسيقى . وقد احتلا مكانا هاما في تعليم البراهمة . وقد نمت الدراسة الخاصة بهم حتي أصبحت الفلسفة أهمها . فقد أدخل البراهمة الفلسفة إلى المدارس الخاصة بهم حتى يحافظوا على سيادتهم الاجتماعية . وجعلوا منها ملكة

الدراسات حتى يعلوا من شأنها . ذلك أن المنهج القديم أصبح ينظر إليه على أنه يساعد على الوصول إلى المعرفة الصحيحة للحق . وهكذا أصبح للفلسفة مكانة هامة في تعليم القساوسة .

وهناك تطور آخر حدث للمنهج المدرسي في مدارس البراهمة . فقد كان على المنهج المدرسي بعد أن سمح البراهمة للشاترية والويشية أن يتعلموا في مدارسهم. وأصبح تعليم هؤلاء تحت الرقابة المباشرة للبراهمة أن يتسع ليواجه الاحتياجات الخاصة بهذا الجمهور العريض المتنوع . فأضيفت إلى جانب المواد القديمة مواد جديدة مثل المنطق والأخلاق والفلك وأصول الحرب والرقص ودراسة العقاقير والسموم وعمل العطور . وبعض المدارس كانت تدرس التاريخ والفنون والصناعات . وكثير منهذه المواد كانت تدرس التاريخ والفنون والصناعات وكثير من هذه المواد كانت لمواجهة الاحتياجات التربوية لغير البراهمة .

مدارس البراهمة :

استهدفت التربية البرهمية تنمية التحكم في العقل والإرادة والجسم وكذلك النزعات والرغبات وتنمية روح التضحية وانكار الذات كما أشرنا . وكان للبراهمة مدارسهم وجامعاتهم الخاصة بهم ، وإن كانوا قد سمحوا لغيرهم من الطبقات أن يتعلموا فيها تحت إشرافهم . وكانت هناك عدة أنواع من مدارس البراهمة اخذت أشكالا متعددة عبر القرون من أهمها : (Mulhern : pp. 113 - 116)

١ - مدارس الجورو Guru : كلمة الجورو تعني الكاهن . وسميت بهذا الأسم لأن هذه المدرسة كان ينشئها مجموعة خاصة من الكهنة . وكان يقوم بالتدريس فيها كاهن هو المعلم الوحيد بالمدرسة . وقد انتشر هذا النوع من المدارس الأولية في الهند . وكان عندما يتزايد عدد التلاميذ في المدرسة يقوم الجورو بتكليف بعض تلاميذه الكبار بمساعدته في التدريس . وهو ما يشبه نظام العرفاء الذي عرفته التربية الإسلامية فيما بعد واعتمدت عليه انجلترا وفرنسا ومن بعدهما أمريكا في نشر التعليم الأولي بها في القرن ١٩ . وكان يدرس بهذه المدارس تعاليم الفيدا وحكمتها .

٢ - مدارس الباريشاد Parichads : وهي نوع من المدارس كان يشرف عليها جماعة من البراهمة ذوي المكانة الدينية الضالعين في شرح الفيدا والكتب الدينية . وكان يفد إليها الطلبة من أنحاء مختلفة . وكان يتحتم وجود

متخصصين بين أساتذتها لشرح الفيدا والكتب الدينية . وقد خلف هذه المدارس كليات الغابات . وكانت تنشأ في الغابات . وتتكون مبانيها من أكواخ طينية يسكنها الطلبة والأساتذة معا . وتعتبر جامعات البراهمة نموا متطورا لمدارس الباريشاد .

٣ - مدارس البلاط : وهي ليست مدارس بالمعنى المفهوم . وكما يبدو من إسمها كانت خاصة بالملوك والأمراء الذين كانوا يحيطون أنفسهم بجماعات من أهل العلم والأدب . وكانت المناقشات تعقد في البلاط الملكي وفيه يدور النقاش حول الدين والفلسفة والنحو والأدب وإن اشتهرت هذه المدارس بالفلسفة . وقد عرف العرب فيما بعد نوعاً من هذه المدارس تمثل في مجالس الآدب والحكمة التي كان يعقدها الحكام والأمراء لاسيما في العصر العباسي . وكانت هذه المجالس تضم مشاهير الشعراء والأدباء إلى جانب الخلفاء والأمراء .

٤ - المدارس الخاصة أو النوعية : وهي نوع من المدارس اختص كل منها بتعليم فرع معين من المعرفة . فكانت هناك مدارس للنحو وأخرى للأدب أوالقانون أو الفلك أو الفلسفة . وهكذا .

٥ - مدارس الأديرة : كانت أديرة البراهمة يسمى كل منها ماثا Mathas وقد ظهرت في مطلع القرن السابع الميلادي.واهتمت بدراسة الفيدا أو الهندوسية القديمة . وكانت البوذية آنذاك في آخر مراحل انهيارها . كما تركز اهتمام الأديرة على دراسة النحو والأدب والمنطق وفلسفة الفيدا ، إذ كان هدفها من وراء ذلك الحفاظ على البرهمية والهندوسية . وكانت هذه الأديرة تقدم لها الهبات من الملوك والأغنياء . وكانت الدراسة والإقامة بها مجانية .

٦ - مدارس التول : وهي نوع من المدارس عبارة عن حجرة واحدة ومدرس واحد. وكانت المدرسة تحاط بأكواخ من الطين يعيش فيها الطلبة . وقد انتشرت هذه المدارس في المراكز الدينية والسياسية . ولم يكن يزيد عدد الطلبة بها عن عشرين طالبا . وكانت الدراسة فيها بالمجان وكان ينفق على هذه المدارس معونات ومساعدات الأغنياء والموسرين بما يكفي لطعام وكساء الطلبة . وبعد الفتح الإسلامي للهند أصبحت مدارس الأديرة والتول النمط الشائع لمدارس البراهمة . وبعضها ظل يحيا في الهند حتى الوقت الرهن .

الجامعـــات :

عرفت الهند القديمة نظام الجامعات وكان للطالب في نحو السادسة عشر أن ينتقل إلى إحدي الجامعات الكبرى التي كانت مفخرة الهند القديمة والوسيطة مثل " بنارس " و " تاكسيلا " و " فدار بها " و " أوجانتا " و " يوجين " . وكانت جامعة " بنارس " حصنا حصينا للتعاليم البرهمية الأصيلة في أيام بوذا الذي تنسب إليه البوذية . وكانت ثورة ضد البراهمة . كما لاتزال كذلك إلى يومنا هذا. وكانت جامعة " تاكسيلا " في عهد غزوة الإسكندر معروفة في آسيا كلها على أنها مقر الزعامة في البحث العلمي في الهند . وأشهر ما اشتهرت به مدرسة الطب فيها . واحتلت جامعة " يوجين " مكانة عالية في أسماع الناس بما فيها من علماء الفلك . كما اشتهرت جامعة " أوجانتا " بتعليم الفنون ، وإن واجهة أحد المباني المخربة في " أوجانتا " لتدل بعض الدلالة على فخامة هذه الجامعات القديمة . (ديورانت : جـ ٣ ص ٣٨٦)

وكان منهج الدراسة بهذه الجامعات يشبه إلى حد كبير ما يدرس في جامعات البوذيين التي كانت من أشهرها جامعة " نالاندا " . غير أن جامعات البوذيين كانت تتميز بوجود بعض الدراسات العملية بها والتي لم تكن موجودة في جامعات البراهمة . وكان يدرس بهذه الجامعات الدين والأدب وعلم الألفاظ والمنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والطب .

المعلمون :

في الهند القديمة كان المعلمون من طبقة اجتماعية دينية رفيعة هم البراهمة . وكانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية عالية . فقد كان البراهمة هم المعلمون الذين يقومون بتدريس " الفيدا " . وكان البراهمة يحتكرون تدريس الدين والفلسفة . أما المواد الأخرى فكان يقوم بتدريسها أناس آخرون من مرتبة أقل من البراهمة . وكان هؤلاء المعلمون يروجون أحيانا أفكاراً ضد البراهمة . فكانوا كأنهم يمهدون الطريق إلى ظهور البوذية التي كانت ثورة ضد البراهمة كما أشرنا .

وفي الدراسات العلمية والمواد العلمانية مثل التجارة والإدارة السياسية كان يقوم بتدريسها أفراد عاديون يعرفون قوانين "الفيدا " تحت إشراف البراهمة أيضا. وكانت معرفة " الفيدا " ينقلها الحافظون لها في عقولهم وقلوبهم . وانتشار هذه المعرفة كان رهنا برغبة حامليها ووفق شروطهم . وكان دارسوها من التلاميذ

يختارون على أساس معايير قياسية من المقدرة والخلق . وكان للمعلم مطلق الحرية في اختيار التلميذ والاحتفاظ به . وهكذا وجد في الهند نوع من التربية المعرفية انتقل عبر عقول المعلمين لا الكتب . وكان كل معلم يمثل مكتبة حية لاتمتد لها يد الطغيان بالتدمير أو التخريب . وهكذا احتفظت الهند بثقافتها في عقول المعلمين إلى جانب الكتب والمخطوطات . ويقال : « لو أن كل مخطوطات الفيدا دمرت لأمكن استعادتها بالكامل من عقول المعلمين البراهمة » . وكان المعلمون البراهمة منذ عصورهم الأولى يخضعون لشروط مقررة بقانون مقدس يبين شروطهم وسلوكهم . وكان عليهم ألا يقبلو أي جزاء أو مكافأة في مقابل خدماتهم أكثر من الهدايا وما يجمعه لهم تلاميذهم من التسول . ويبدو أن نظام الهدايا كان مجزيا إذ يقال إن بعض المعلمين كانت له ممتلكات قيمة عن طريق هذا النظام. وقد أباح قانون " مانو " للمعلمين أن يستخدموا العقاب البدني . كما أباح لهم أن يكتسبوا الرزق عن طريق تسول تلاميذهم . هذا على الرغم من أن القانون نفسه يرسم صورة للمعلم المثالي بأنه نموذج يحتذى به في حياته وسلوكه إلى جانب أنه مثقف مسالم طاهر النفس .

التربية البوذية :

تعتبر البوذية إحدى الديانات الرئيسية في الهند . وقد دخلت إلى الهند في القرن السادس قبل الميلاد على يد شخص له أسماء عديدة آخرها " بوذا " الذي ينتمي إلى قبيلة كان والده زعيما لها .لكن "بوذا " زهد فيما حوله من نعيم فترك أسرته وارتدى ثياباً خشنة وترك المدينة . وأقام هو وزوجته وولده في جبل تحت شجرة تعرف بشجرة بوذا التي اكتسبت شهرة تاريخية.وقد مات بوذا سنة ٤٨٣ ق.م.وهو في الثمانين من عمره.وكان يعتقد أن تعاسة البشر وشقاءهم يرجعان إلى شهواتهم الجسمية ، ولا خلاص للفرد إلا بالزهد والتعفف عما في الحياة من شهوات . أي لابد للإنسان أن يحقق لنفسه "النرفانا".ويقصد بها حالة السعادة التي يصل إليها الفرد بابتعاده عن هذه الملذات والشهوات الجسمية وانعدام شعور الفرد بفرديته واتحاده بالله والفناء التام في الحياة الآخرة.وربما يفسر هذا عادة حرق الجسم بعد الموت حتى يفنى فناء تاما .ولهذا تعني النرفانا "الإنطفاء " .

ويبدو أن النرفانا غامضة في مفهومها . فهي في عقيدة البراهمة تكون باستطاعة النفس الفردية أن تتحد مع الذات العلية في حالة شبيهة بالصوفية .

وفيي مذاهب هندية أخرى تتحقق النرفانا إذا استطاع الإنسان أن يحقق التوازن بين قواه الروحية وقواه المادية . أما في المذهب البوذي فهي تعتبر نهاية المراحل التي يستطيع فيها الحكيم أن يتغلب على شهواته . إن كلمة النرفانا في تعاليم بوذا معناها كما يبدو اخماد الشهوات الجسدية للفرد كلها ومايترتب على ذلك للذات من ثواب هو الفرار من الموت إلى الحياة . أما في الأدب البوذي فكثيرا ما تتخذ الكلمة معنى دنيويا . إذ يوصف القديس بأنه اصطنع النرفانا في حياته الدنيا بجمعه لمقوماتها السبعة وهي : السيطرة على النفس ، البحث عن الحقيقة، النشاط ، الهدوء ، الغبطة ، التركيز ، علو النفس .

وقد وضح بوذا معنى الانطفاء بمثال حي هو انطفاء النار وخمودها لعدم وجود الوقود . وكذلك الإنسان الذي لايغذي نيران عواطفه المتأججة يصل في النهاية إلى إخماد هذه العواطف وتصبح حياته هادئة لايقلقها إزعاج الشهوات . ولما طلب تلاميذه منه أن يحدد معنى الحياة السليمة في رأيه لكي يزيد الرأي وضوحا صاغ لهم " قواعد خلقية خمسا " يهتدون بها هي بمثابة وصايا . وتقول هذه الوصايا الخمس :

١ - " لاتقتل كائنا حيا " : وهو مبدأ يشمل كل الفلسفات الهندية . فاحترام الحياة يجب أن يمتد إلى أي مخلوق مهما كان تافها .

٢ - " لاتأخذ ما لا يخصك " : وهو مبدأ ينتهي إلى نبذ الإمتلاك والاقتناع بالحاجات الضرورية فقط .

٣ - " لاتنظر إلى زوجة غيرك " : وهو مبدأ ينتهي إلى التعفف المطلق .

٤ - " لاتقل ما لا تعتقد أنه الحق " : ويندرج تحت هذا المبدأ تفاصيل دقيقة على أنواع الكذب ومنها الوشايا التي تفسد بين الأصدقاء .

٥ - " لاتشرب مشروبات مسكرة " : ولو بمقدار قليل .

وفي موضع آخر نجد " بوذا "يضيف إلى تعاليمه هذه تعاليم أخرى تقول :

« على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة وأن يزيل الشر بالخير،إن النصر يولد المقت لأن المهزوم في شقاء . إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها . إنماتزول الكراهية بالحب». (ديورانت: جـ٣ص ص٧٦-٧٧) .

لقد اهتم بوذا بالإنسان . ولم يشغل نفسه بالمسائل الفلسفية الميتافيزيقية

كالمسائل الكونية والإلهية . وتقوم فلسفته على قضايا رئيسية من أهمها أن الوجود ينطوي على الآلام ، وأن الألم يتولد عن الشهوات التي يستحيل علينا دائما إشباعها ، وأننا لانستطيع أن نقضي على الألم إلا إذا أخمدنا في نفوسنا كل شهوة ، وأن إخماد الشهوات لايكون إلا باتباع طريق الحكمة الذي يوصلنا إلى الخلاص أو التحرر الأبدي أو "النرفانا " ، وأن أولى خطوات الخلاص هو التفاني وإنكار الذات .

ويقول أيضا : إن نفوسنا المضطرمة ليست في حقيقة الأمر كائنات وقوى مستقلا بعضها عن بعض . لكنها موجات عابرة على مجرى الحياة الدافق . إنها عقد صغير تتكون وتتكشف في شبكة القدر حين تنشرها الريح . فإذا ما نظرنا إلى أنفسنا نظرتنا إلى أجزاء من كل ، وإذا ما أصلحنا أنفسنا وشهواتنا إصلاحا يقتضيه الكل . عندئذ لاتعود أشخاصنا تحزننا حزنا مريرا كما كانت تفعل بنا من قبل بما ينتابها من خيبة أمل أو هزيمة وما يعتريها من مختلف الآلام ومن موت لامهرب منه ولامفر . عندئذ تفنى هذه الأشخاص في خضم اللانهاية . إننا إذا ما تعلمنا أن نستبدل حبنا لأنفسنا بحب الناس جميعا والأحياء جميعا ، عندئذ ننعم آخر الأمر بما ننشد من هدوء .

ويبدو أن بوذا قد سلم بعقيدة الهندوس في تناسخ الأرواح وانتقالها من جسد لآخر . وظل عدة أعوام يحاول رياضة النفس عن طريق " اليوجا " *. ولم يكن يأكل إلا الحبوب والنبات أي كان نباتيا . وكان يتأمل فيما يعانيه الإنسان من آلام وفي فلسفة البقاء والفناء . وأخيرا وجد أنه لابد أن يهاجر بأفكاره ومعرفته . فأخذ يحدث الشبان والشيوخ بهذه الآراء . ولم يدع بوذا مطلقا أنه موحي إليه أو أن هناك إلها يتكلم بلسانه بل نسب إلى نفسه المعرفة واعتقد أن الإنسان لايرى سوى قوة المادة وتغير الحياة وأن الروح أسطورة والعقل ليس إلا شبح توهمه الناس . إن ما هو موجود فعلا هو الإحساسات والمدركات . والنفس أو الذات تتكون من الوراثة ، والخبرات والتجارب من خلال الحياة نفسها وهي أي النفس

---

* اليوجا تعني القيد أو الضبط لأن على الحكيم أن يقيد ذاته المادية ليكبح جماحها . واليوجا نظام صارم لترويض النفس مكون من أربع مراحل يتعلم الإنسان في المرحلة الأولى كيف يتحكم في إدراكه ، وفي المرحلة الثانية كيف يتحكم في خياله . وفي الثالثة كيف يتحكم في شعوره ، وفي المرحلة الرابعة كيف يجني ثمرة ما يصل إليه من ارتقاء روحي .

غير خالدة . وهذا عكس ما كان سائدا بين الهندوس من تناسخ الأرواح وانتقالها من جسد إلى جسد (ديورانت : جـ ٣ ، ص ٧٤) .

وقد رفض بوذا كتاب الفيدا وتعاليمه واعتباره السلطة العليا على السلوك الاجتماعي . كما رفض نظام الطبقات باعتباره نظاماً اجتماعيا غير عادل . وهكذا حلت الآداب البوذية محل الفيدا كمصدر للحكمة والأخلاق . ومع أن دراسة الفيدا كانت متضمنة في منهج المدرسة فإنها لم تكن أساس التربية البوذية. فكان المنهج المدرسي للتربية البوذية مستعارا بدرجة كبيرة من البراهمة . وتتشابه التربية البوذية في اتجاهاتها العامة مع التربية البراهمية في أنها كانت تعني بالمثل العليا الدينية والخلقية . هذا على الرغم من أن البوذية كانت ثورة على البراهمة وثورة على الفيدا وتعاليمها . وكان الرهبان البوذيون يرون الحياة المثالية في التنسك والزهد والعزلة حتى يحقق الإنسان انتصاره على شهواتها التي هي مصدر تعاسته . ولذا عاشوا في الأديرة الكثيرة التي انتشرت في الهند. وكان في كل دير مدرسة يلتحق بها الأطفال يكرسون حياتهم لحياة الدير بما فيها من زهد . وعلى كل طفل أن يتخير راهبا ليكون مدرسه الخاص . ويتدرج الطفل في مراحل التعليم من سن الثامنة حتى سن العشرين . وبعدها يمكن أن يلتحق بإحدى الجامعات البوذية إذا أمكنه النجاح في امتحان صعب للقبول .

وكان التعليم على كل المستويات يقوم على أساس حفظ نصوص الكتب والمقالات المطولة . يلي ذلك مرحلة مناقشة وتفسير معاني هذه النصوص المحفوظة . وكان سلوك التلميذ وحياته تنتظم وفق شروط قاسية تتشابه مع نظيرتها لدى الطلبة البراهمة . وكانت علاقة التلميذ بأستاذه تقوم على أساس الطاعة والعبادة والقيام بخدمته وأداء الأعمال اللازمة له .

الجامعات البوذية :

تعتبر جامعة نالاندا أشهر الجامعات البوذية . وقد أنشئت سنة ٤٠٠ق.م. بعد موت منشئ العقيدة البوذية بزمن قصير . وخصصت لها الدولة دخل مائة قرية لينفق عليها منه . وكان بها عشرة آلاف طالب ومائة قاعة للمحاضرات ومكتبات ضخمة وست بناءات كبيرة للسكنى . وارتفاعها أربعة طوابق ووفد إليها طلاب من بقاع الهند والشرق الأدنى والأقصى . يقول "يوانج شوانج" إن مراصدها كانت تنبهم معالمها في ضباب الصباح . وتعلو غرفاتها العليا على

السحاب . ولقد أحب هذا الصيني الكهل رهبان "نالاندا" العلماء وأحراشها الظليلة حبا جعله يقيم هناك خمسة أعوام . وهو يروي لنا أن معظم أولئك الذين أرادوا الدخول في حلقات المناقشة من النزلاء الأجانب في نالاندا كانوا ينسحبون أمام ما يلاقونه من صعوبات ومشكلات . وكان يسمح بالدخول لأولئك الذين تعمقوا في العلوم القديمة والحديثة . لكن لم ينجح من كل عشرة أكثر من إثنين أو ثلاثة . وكان الطلاب الذي يساعدهم الحظ في الدخول يتعلمون مجانا بما في ذلك أيضا المسكن والغذاء (ديورانت : جـ ٣ ، ص ٣٨٦) . وهو عكس ما كان شائعا من التعليم في الهند إذ لم تكن الدولة تنفق عليه كما أشرنا . وربما يدل ذلك على الاهتمام الخاص الذي كانت تحظى به هذه الجامعة .

بيد أن الطلاب لقاء ذلك كانوا يخضعون لنظام أوشك أن يكون كنظام الأديرة . ولم يكن الطالب يسمح له بالتحدث إلى إمرأة أو برؤيتها . بل إن مجرد الرغبة في النظر إلى إمرأة كان يعد عندهم خطيئة كبرى على نحو ما جاء في العهد الجديد . وإذا اقترف طالب إثماً جنسيا كان عليه أن يلبس جلد حمار مدة عام كامل . على أن يظل الذيل مرفوعا إلى أعلا . وأن يجوب الآثم الطرقات يطلب الصدقات ويعلن عن خطيئته . وكان الطلبة جميعا يطالبون كل صباح بالاستحمام في أحواض السباحة العشرة الكبرى التابعة للجامعة . ومدة الدراسة أثنا عشر عاما . ولو أن بعض الطلبة كانوا يقيموا بالجامعة ثلاثين عاما ، وبعضهم يقيم بها حتى الممات . (ديورانت : جـ ٣ ، ص ٣٨٧) .

ويقول الرحالة الصيني " هيون تسانج " في القرن السابع إنها كانت تضم عشرة آلاف طالب وأستاذ منهم حوالي ألف وخمسمائة أستاذ . وكانت الدراسة والإقامة الداخلية بجامعة نالاندا مجانية مثلها مثل بقية الجامعات البوذية إلا أنه كان لايسمح بذلك إلا للطلاب المتفوقين فقط . وكان لايسمح بالالتحاق بها إلا بعد النجاح في الامتحان . ويبدو أنه كان إمتحاناً قاسيا لأن نفس المؤرخ يذكر أن ٧٠٪ من المتقدمين للالتحاق بها كانوا يرسبون في امتحان القبول . وقد أغلقت نالاندا أبوابها وانتهت كجامعة سنة ٨٥٠م . وكان شهرتها في النحو والأدب والمنطق والفلسفة والمتيافيزيقا والفلك والجغرافيا والعمارة والفنون والطب والموسيقى . ويبدو أن القانون والرياضيات كانت تلقى اهتماما أقل في المعاهد البوذية عما كانت عليه في المدارس البرهمانية .

البوذية بعد بوذا :

لم يمض على موت بوذا قرنان من الزمان حتى انقسم تراثه ثمانية عشرمذهبا متبايناً . فأما أتباع البوذية في جنوب الهند وجزيرة سيلان فقد استمسكوا حينابمذهب صاحب العقيدة في بساطته وصفائه . وقد أطلق على هذه الشعبة من مذهبه فيما بعد اسم " هنايانا " ومعناها « البلاغ الأصغر » . فقد عبدوا بوذا باعتباره معلما عظيما لا إلها. وكان كتابهم المقدس هو النصوص المكتوبة باللغة البالية التي تبسط العقيدة في صورتها القديمة . وأما في الأرجاء الشمالية من الهند والتبت ومنغوليا والصين واليابان ، فالبوذية التي سادت فيها يطلق عليها اسم " ماهيانا " ومعناها« البلاغ الأكبر » الذي رسم حدوده ونشر دعوته " مجلس كانشكا " . فأعضاء هذا المجلس وهم من اللاهوتيين الموهوبين قد أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين . (ديورانت : جـ ٣ ، ص ١٩٦) .

وحدث في القرن السابع الميلادي أن أقام المحارب المتنور " سترونج تسان جامبو " حكومة قوية في التبت وضم إليها نيبا . وبنى مدينة " لهاسا " لتكون عاصمة له . وهيأ لها طريق الغنى بجعلها محطا وسطا في التجارة بين الصين والهند . ودعا طائفة من الرهبان البوذيين من الهند لينشروا البوذية والتعليم بين شعبه . وعندئذ ترك الحكم أربعة أعوام أنفقها في تعلم القراءة والكتابة .فكأنما كان فاتحة عهد ذهبي في بلاد التبت . فأقيم آلاف الأديرة في الجبال وعلى النجد الفسيح . ونشر كتاب تشريعي يضم الكتب البوذية . ويقع في ثمانمائة وثلاثة وثلاثين مجلدا ، حفظت للعلم الحديث كثيرا من احوال هذه الكتب التي كانت قد ضاعت أصولها الهندية منذ زمن طويل . وهناك في تلك الصومعة التي أغلقت أبوابها دون العالم بأسره راحت البوذية تتطور في شبكة معقدة من الخرافات والرهبنة والكهنوت لاينافسها في ذلك سوى أوربا في أوائل عصورها الوسطى . ولايزال " دالاي لاما " (أي الكاهن الشامل لكل شيئ) الذي اختفى في دير "بوتالا " العظيم الذي يطل على مدينة " لها " . موضع عقيدة عند أهل التبت . بما تنطوي عليه نفوسهم من السذاجة الطيبة بأنه تجسيد حي " لبوذا المستقبل " أو " بوذا المنتظر " . وفي كمبوديا والهند الصينية تعاونت البوذية مع الديانة الهندية في تخطيط الإطار الذي قامت عليه روائع الفن في عصر هو من أغنى العصور في تاريخ الفن الشرقي . وهكذا نجد البوذية قد ظفرت بأعظم انتصاراتها خارج الأرض التي أنبتها . (ديورانت : جـ ٣ . ص ٢٠١) .

الفصل الخامس

التربية الإغريقية

مقدمة :

كان الإغريق أو اليونان القدماء يعتقدون أنهم خلقوا من طبقة غير طبقة سائر البشر التي كانوا يطلقون عليها اسم البربر . وأنهم لهذا اكتملت لهم إنسانيتهم بما زودوا به من قوة العقل والإرادة . أما غيرهم فهم من فصيلة الأنعام . وقد عبر عن ذلك أرسطو عندما قال بأن الآلهة خلقت فصيلتين من البشر : فصيلة زودها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونانيين ، وفصيلة أخرى لم يزودها إلا بقوة الجسم وهم البربر أي غير اليونانيين من البشر . وبحكم هذا التمايز في الخلقة فإن الآلهة قد أرادت أن يكون البربر عبيدا مسخرين للصفوة المختارة وهم اليونانيون . وهؤلاء من واجبهم أن يعملوا بمختلف الوسائل ليضعوا البرابرة في المكانة التي خلقوا لها وهي الرق والعبودية . وقد اعتقدوا أن هذا الاسترقاق يحقق توزيع العمل على الوجه الذي يتفق مع طبائع الأشياء . وربما كانت هذه من أقدم الدعوات العنصرية إن لم تكن أقدمها على الإطلاق .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الإغريق تتلمذوا على المصريين القدماء وأن أعظم علمائهم مدين في أعظم نظرياته وأفكاره لمصر القديمة . وفي تأكيد هذا المعنى يقول " جورج سارتون Sarton إنه من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ في بلاد الإغريق لأن المعجزة الإغريقية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وفي بلاد ما وراء النهرين وغيرهما من البلاد . إن العلم اليوناني كان إحياء أكثر من اختراع . وكفانا سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية المصرية والبابلية التي لم يكن التقدم الهليني ممكنا بدونها .

تاريخ اليونان :

يقسم تاريخ اليونان القديمة عادة إلى عصرين متميزين بصفة عامة : أولهما : عصر الحضارة الإيجبية والهومرية (١٣٠٠- ٧٠٠ ق.م)نسبة إلى بحر إيجه وشاعر اليونان الشهير هومر . وثانيهما : عصر الحضارات الهلينية والهلينستية ويمتد من عام ٧٠٠ق.م إلى عام ٥٢٩ ميلادية . والحضارة الهلينية تعني حضارة

اليونان القديمة أما الحضارة الهلينستية فتعني الحضارة اليونانية القديمة أي الهلينية مختلطة بعناصر ثقافية جديدة بعد الغزو الروماني لليونان .

عصر الحضارة الإيجية الهومرية :

كانت بلاد اليونان تمتد إلى شمال إفريقيا ومصر حيث أنشأوا مدنا لهم . وامتدت تجارتهم لشواطئ الدردنيل والبحر الأسود وآسيا الصغرى . وكان بحر إيجه مركز نشاط لتجارتهم . ولم تكن بلاد اليونان الأصيلة إلا جزءا صغيرا من العالم اليوناني القديم . وكانت جزيرة كريت في وسط البحر المتوسط تملك أسطولا قويا في تلك الفترة سيطرت به على بحر إيجه وعلى جزء من بلاد اليونان الأصلية . واستطاعت بهذا أن تكون جزءا مما عرف في تاريخ اليونان بالحضارة الإيجية . إن سكان كريت ينتمون في أصولهم إلى شعوب آسيا . كما أن ثقافتهم وفنونهم كانت متأثرة بمصر القديمة تأثرا كبيرا . وقد بلغ من التشابه بين ثقافة كريت وثقافة مصر القديمة أن ذهب بعض العلماء إلى القول بأن موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت أمام الإضطرابات التي وقعت في عهد مينا (Evans : Vol .1 , p. 17) . بل إن الفنون في البلدين تتشابه في أساليب النقش والخزف والتصوير والموازين والمكاييل والآنية الحجرية والأسلحة النحاسية . وقد بلغ هذا التشابه درجة جعلت علماء الآثار يعتقدون أن حضارة كريت ليست إلا فرعا من الحضارة المصرية القديمة (Spengler : Vol . 11 , p. 88). وقد استطاع الشاعر اليوناني هومر أن يخلد جانبا من هذه الحضارة بأوصافه للمدن والأماكن التي ذكرها في أشعاره .

وكانت كريت في عهدها القديم تسكنها عشائر تقيم في قرى مستقلة لكل منها زعيم يحكمها . وكانت كلها تتوحد تحت سلطان ملك يدين له الجميع بالولاء والطاعة . وقد انهارت قوة كريت في القرن ١٤ ق.م . وبعد ذلك بقرون قليلة قامت سلسلة من الحروب شملت كل منطقة بحر إيجه . وكان من أهمها حروب طروادة في القرن ١١ ق.م . التي خلدها هومر في أشعاره . وبهذا تحولت القوة إلى بحر إيجه وبلاد اليونان الأصلية . ولكن إذا كان هذا العصر يلقب بعصر الحضارة الإيجية الهومرية فإنه يجوز لنا أن نتساءل هل كانت هناك فلسفة هومرية للتربية ؟

الواقع أن التربية الهومرية قد سادت في الفترة القديمة من تاريخ بلاد اليونان حتى القرن الثامن قبل الميلاد أما التربية الأثينية فتشمل مرحلتين وهي المرحلة المتقدمة وتنتهي بنهاية الحروب الفارسية سنة ٤٧٩ ق.م .والثانية وهي المرحلة المتأخرة وتشمل الفترة من نهاية الحروب الفارسية حتى الغزو المقدوني عام ٣٣٨ق.م . وهذه الفترة تمثل العصر الذهبي في التربية الأثينية . أما التربية الأسبرطية فقد استمرت عبر تاريخ بلاد اليونان . وسنتناول الكلام عن كل نوع من هذه الأنواع من التربية الإغريقية في الصفحات التالية :

فلسفة هومر التربوية :

عاش الشاعر الأعمى هومر أوهوميروس في القرن الثامن أو التاسع ق .م . وتصفه ملاحمه وقصائده الأسطورية في " الإلياذة والأوديسا " القرن الثاني عشر ق.م . من الحضارة الميسينية * وتعتبر الإلياذة والأوديسا أقدم الآثار للعصر الإغريقي في هذه الفترة . وقد نقلتا من جيل لآخر مشافهة وسجلتا في القرن التاسع أو الثامن ق.م . وهما يضمان أشعارا قصصية تصور البطولات ومغامرات الأبطال عند قدماء اليونان . كما تصور بطولاتهم في الحروب وتنافسهم في الغنائم والأسلاب ، وما كان ينزل بهم من عجيب النوازل . وفيها أيضا ذكر لأسماء آلهة اليونان وآلهة خصومهم ووصف القربان والضحايا والتوسلات التي كان يتوجه بها كل مظلوم أو مكروب إلى الآلهة ، وذكر ما يجري بين آلهة السماء حين تتشاور فيما بينها وحين تتنازل وتنقسم آراؤها .

وترجع أهمية هوميروس في التربية إلى أن الفضائل والمثاليات التي امتدحها في قصائده الأسطورية قد أصبحت أهدافا للتربية في اليونان حتى أواخر القرنين الخامس والرابع ق . م . ففي هذه العصور الهامة لم تستبدل فلسفة هوميروس في التربية . ولكنها استكملت ببساطة بإضافة الدراسات الرياضية التي امتدحها أفلاطون . وكذلك النحو والخطابة التي دعي إليها بلاغيو أو قدامى السفسطائيين ومنهم " إيسوقراط " (٤٣٦ - ٣٣٨ ق . م) وكان أشهر معلمي الخطابة في أثينا بل جميعا وهو غير سقراط المعروف .

---

* نسبة إلى مدينة ميسيني وهي من أعظم عواصم وبلاد اليونان الأصلية . وقد وصفها هومر بأنها مدينة حسنة البناء واسعة الطرقات موفورة الذهب

ويبدو أن قدماء اليونانيين قد أحبو تعليم الفتية بين سن السابعة إلى الرابعة عشرة المثاليات الهوميرية ، والألعاب الرياضية ، وإنشاد القصائد الملحمية على آلة القيثارة . وبالرغم من أن الأطفال في العصر الهليني كانوا يتعلمون مهارات الاتصال الأساسية وهي القراءة والكتابة والحساب فقد أعجب أغلب المحافظين في أثينا بإسبرطة حيث بقي التراث الهوميري دون أن يمس تقريبا . ولقد أحزن هؤلاء الأثينيين فقدان الاهتمام بالفضائل الهوميرية كالشجاعة الشخصية والولاء واحترام الآلهة . وليس على المرء سوى قراءة ملهاة أرستوفان " السحب " ليحس بخيبة أمل المحافظين لتغيير المناهج بإضافة التدريب على الخطابة والفلسفة في تعليم الشباب الأثيني . ولم يخفف من خيبة أمل المحافظين الإدعاء بأن التدريب على الخطابة قد يعلم قدرا كبيرا من المواد الدراسية فضلا عن القدرة على التحدث بنجاح . ولقد ذهب ارستوفان ومن سلك مسلكه بأن القيم الهوميرية والشعر الهوميري إلى جانب الألعاب الرياضية ومعرفة العزف على القيثارة ، قد زود الشاب بكل ما يحتاج لتعلمه بالمدرسة . بينما لم يطق المحافظون صبرا على إدخال السفسطائيين المناقشات الفنية في الأخلاق وعلم السياسة ضمن المنهج . وقد احتقروا مبدأ الرجل الذي يتعلم تعليما عاما أو موضوعات مدرسية مختلفة. وكانوا يقولون : دع الناس يصبحون فاضلين وشجعان وأقوياء ولا داعي للاهتمام بهم بعد ذلك .

ولما كانت الأرستقراطية الأوربية قد وجدت النموذج الهوميري جذابا لذلك يحق لنا التأمل في بعض الفروض التي أخذ بها هوميروس دون نقاش . وأحد هذه الفروض هو أنه يتعذر على أغلب الناس أن يتعلموا . وقد قال أفلاطون بصفته أرستقراطيا في مؤلفه " مينو " Menu بأنه لايمكن أن تعلم الفضيلة . ولابد أنه يعني بذلك أن ولادة الصبي من أسرة أرستقراطية تضمن له نموذجا يكسبه الفضيلة بالسليقة . ويمكنه من غرسها في نفسه . وقد قال أرسطو نفس الشيء . إن بعض الناس ولدوا عبيدا . ولقد شارك الشاعر الأرستقراطي "بندار" الشاعر "نيو جنيس" في التشجيع على قصر التربية على من ولدوا طيبين . وقد كتب بندار : « كن هذا الرجل الذي تعرفه عن نفسك » . ويعني هذا أن التربية صقل وتمرين للمواهب والفضائل الموروثة . وتتمشى هذه الفكرة تماما مع الفلسفة الأرستقراطية والمحافظة التي تعتقد أن بعض الناس ولدوا حكاما وآخرين ولدوا

ليعملوا تحت حكمهم وإمرتهم .

عصر الحضارة الهلينية والهلينستية :

تمتد الحضارة الهلينية والهلينستية من عام ٧٠٠ ق. م . حتى عام ٥٢٩ ميلادية عندما أعلن الإمبراطور جستنيان نظاما بموجبه أغلق المدارس الوثنية في أثينا . وتقسم هذه الفترة عادة إلى ثلاثة مراحل . المرحلة الأولى وتمتد من عام ٧٠٠ ق.م . حتى ٣٣٨ ق.م . وهي الفترة التي تعرف بالحضارة الهلينية أو اليونانية القديمة . وقد انتهت بمعركة كارونيا التي انتصر فيها الملك فيليب حاكم مقدونيا اليوناني على أثينا . وتابع إبنه الإسكندر الأكبر خطواته . وغزا كل بلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وبلاد الفرس حتى الهند . ويغزو مقدونيا لليونان وتوحيدها أصبحت الإسكندرية في مصر وليست أثينا العاصمة السياسية والثقافية للإمبراطورية الجديدة . وقد شهدت هذه الفترة الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . كما شهدت أيضا انتقال القوة السياسية من الملك القبلي إلى الأسرات الأرستقراطية ثم إلى طبقة الملاك ثم إلى المواطنين . ولكن لم يكن هذا النمو السياسي واحداً في كل مناطق اليونان . واختلف من مدينة لأخرى. ومن المعروف أن اليونان كانت تتكون آنذاك من مدن Polis. كل منها تمثل دولة عرفت باسم الدولة المدينة City State . وفي حين شهدت أثينا تطورا سياسيًا كاملا حتى الديمقراطية توقفت السلطة في اسبرطة عند الطبقة الأرستقراطية . ولم يحدث للمدن اليونانية المتفرقة أن توحدت في دولة واحدة . وقد يرجع ذلك إلى روح الحرية وروح الاستقلال لدى اليونانيين .ولم تتوحد هذه المدن إلا عندما غزتها مقدونيا ومن بعدها روما وعندها أجبر اليونانيون على الوحدة كرعايا في الدولة الجديدة . ولكن على الرغم من تفوق المدن اليونانية كانت هناك عوامل مشتركة توحد بينها كاللغة المشتركة ذات اللهجات المحلية والحياة العقلية المشتركة والحياة الدينية بما فيها من طقوس وعادات مشتركة وحب الجمال والفنون والإهتمام بالألعاب الرياضية التي كانت مبارياتها بين الأفراد والمدن على السواء . والألعاب الأولمبية التي نعرفها اليوم ترجع أصلا إلى اليونان .

أما المرحلة الثانية فتمتد بعد عام ٣٣٨ ق.م . حتى ١٤٦ ق . م . وهي الفترة التي بدأت بغزو مقدونيا لها . وانتهت بوقوع كل بلاد اليونان تحت سيطرة الرومان . وعندها بدأت مرحلة جديدة عرفت بفترة الحضارة الرومانية التي كانت

الحضارة الهلينية أحد مكوناتها الرئيسية . وفي هذه الفترة اختلطت الحضارة الهلينية القديمة بعناصر أجنبية أكسبتها طابعاً جديدا ولذا عرفت باسم الحضارة الهلينستية تمييزا لها عن الحضارة الهلينية . والمرحلة الثالثة التي تمتد من عام ١٤٦ ق.م . حتى ٥٢٩ م . وهذه الفترة تدخل في تاريخ الدولة الرومانية .ومن المعروف أن الغزو الروماني لليونان قد أدى إلى تشرب الرومان لثقافة اليونان . ولذلك يقال أحيانا إن حد الفكر أمضى من حد السيف ، وأن روما غزت اليونان عسكريا ولكن اليونان غزتها فكريا وثقافيا .

وفي كلامنا عن التربية اليونانية سيكون الكلام مقتصرا بالطبع على المرحلتين الأوليين أي الفترة من عام ٧٠٠ ق . م . حتى ١٤٦ ق . م . أما المرحلة الثالثة فسيكون الكلام عنها ضمن الكلام عن التربية الرومانية .

ويجوز لنا أن نتساءل ولو تساؤلا سريعا : ما هي الطريقة الهلينية في التربية ؟ إن الطريقة الكلاسيكية الهلينية - كما كانت تعلم - قد جمعت بين الفكرة والعقل والإمتياز في الصفات أو الأخلاق وبناء الجسد أو الجسم أي التي تجمع بين قوة الفكر والخلق والجسم .

وربما نكون أكثر دقة عندما نسمي هذه الفلسفة التربوية بأنها أثينية . وقد طورها رجال تعلموا في أثينا . وكانت المثالية التربوية في اسبرطة وهي المدينة الوحيدة التي نافست أثينا تتمثل في الهدف الوطني . وهي تربية توكد على بناء الأجسام والألعاب الرياضية التي تعد للحرب .

وقد استقرت الفلسفة الأثينية في التربية على التوازن بين الفكر والجسم والخلق وكمال الصفات . وأدخل عليها جماعة السفسطائيين الاهتمام بالأمور العقلية وإن لم يستقر ذلك إلا في القرن الخامس ق.م. أو ربما حتى القرن الرابع قبل الميلاد . وهو عصر "أرسطو " و " إبسوقراط " ، و " أفلاطون " . ولقد اهتم معلمو القرون الأولى بموضوع تنمية الشخصية وبناء الجسم . وهي فكرة تربوية أوجدها هوميروس .

وتعتبر التربية الإغريقية نمطاً مختلفا عن النمطين السابقين للتربية الفرعونية والتربية الهندية . فلم يكن للدين سلطان قوي عليها . وكانت الحياة وليس الموت أو الحياة الأخرى مركز الاهتمام فيها . ولعل ذلك يرجع إلى أن الإغريق لم يكن لهم تراث ديني أو كتاب مقدس بتعاليم يتحتم على كل الناس معرفتها وتقبلها

والعمل بموجبها . كما أن الإغريق تصورا آلهتهم على غرار صورة البشر شكلا وقواما وطباعا . فهم كالبشر يأكلون ويشربون وإن كان من طعام وشراب خاص بالآلهة دون سواهم . وهم أيضا ينامون ويحتاجون للراحة . بل وكانت لهم نفس المشاعر والأحاسيس التي يعرفها البشر . بيد أنهم يتميزون بالقوة الخارقة والجمال الرائع وأنهم لايهرمون بل يظلون فيي شباب دائم .

كما أن الإغريق لم يكن لديهم نظام موروث للكهانة يكون له السلطة النهائية في تقرير الحق والصواب وقواعد السلوك . وعلى هذا كان العقل اليوناني القديم منذ البداية متحرراً من القيود التي يفرضها الدين على عكس ما كان الحال في الشرق الذي عرف الديانات المختلفة . وقد ساعدت هذه الحرية والتحرر العقل اليوناني الأثيني على وجه الخصوص على التساؤل الطليق الحر عن طبيعة العالم المادي والمشكلات الاجتماعية المختلفة . وهو أمر تميز به العقل اليوناني في تطوره .

ويهمنا ونحن بصدد الكلام عن التربية الإغريقية أن نميز بين نمطين تربويين متناقضين لأكبر مدينتين هما أثينا واسبرطة . وقد سبق أن أشرنا إلى تفاوت النمو السياسي في كلتا المدينتين مما أدى بأثينا إلى أن تحكم بطريقة ديمقراطية في حين كانت إسبرطة تحكم بطريقة عسكرية تسلطية . وسنتناول الكلام عن التربية الأثينية أولا ثم ننتقل إلى الحديث عن التربية الأسبرطية .

التربية الأثينية :

اهتم الأثينيون بالتربية ، واعتبروا أن مكانة التربية هي أسمى مكانة في البلاد . ولما سئل أرستبس Aristippus بماذا يمتاز المتعلم عن الجاهل ؟ أجاب : « بما يمتاز به الجواد المروض على الجواد الجامح » . وأجاب أرسطو عن هذا السؤال نفسه بقوله : « بما يمتاز به الحي على الميت » .

لقد استهدفت التربية الأثينية تحرير عقل الإنسان وتكوين اتجاه فكري ناقد نحو الحياة والمجتمع وتنمية الاتجاه الديمقراطي التحرري لديه . وقد عرفت هذه التربية بالتربية الحرة لأنها استهدفت الوفاء باحتياجات أفراد أحرار سياسيا ذوي عقل تحرري من القيود التي استعبدته في الماضي .وهكذا وضعت التقاليد الخاصة باحترام الفرد لذاته ولمجتمعه . وهو ما يمثل لب الديمقراطية الأثينية . وكانت

التربية الحرة تقتصر على فئة معينة متميزة اقتصاديا وسياسيا عن طبقة الأرقاء والعبيد التي لم تكن تحلم بهذه التربية . فقد كانت التربية الحرة امتيازاً للطبقة العليا التي كانت لها السيادة في المجتمع . ولم يكن المواطن الحر في حاجة إلى العمل للكسب والعيش . لذلك كرس نفسه لحياة المدينة وإدارة الدولة . وهكذا كانت التربية الأثينية إذن تربية ذات نزعة تحررية تهدف إلى إعداد الفرد إلى أن يحيا في المدينة الدولة (City-State) . ولم تكن لإعداده ليوم الحساب بمعرفة أوزوريس قاضي الموتى في العالم الآخر كما كان في مصر القديمة أو للدخول في حالة النرفانا كما كان عند الهنود أو البوذيين .

وفيما بعد القرن الخامس ق.م اتجهت التربية الأثينية إلى التقليل من الاهتمام بالنواحي الجمالية والدينية والعناية فقط بالجانب العقلي . وقد جاء ذلك نتيجة لهزيمة أثينا على يد إسبرطة في الحروب البليونيزية وفيما بعد هزيمتها أيضا على يد مقدونيا . وتحول هدف التربية الأثينية من تربية الرجل الحر إلى تربية الرجل الذي يعنى بالأمور العقلية لا بالأمور الأخرى . وكان لهذا التحول أثره على كل أنواع التعليم ومراحله .

الدولة والتربية في أثينا :

كان المنزل في أثينا القديمة على عكس إسبرطة يقوم بدور هام جدا في التربية وكان للآباء مسئولية كبيرة نحو تعليم أبنائهم . وكان للأب السلطة النهائية المطلقة في المنزل . وكان الأب هو الذي يقرر ما إذا كان إبنه الجديد سيبقى على قيد الحياة أم لا * . في حين أن هذا الحق في اسبرطة كانت تملكه الدولة لا الآباء. وكان الأب أيضا هو الذي يتولى كل ما يتعلق بتربية أبنائه قبل أن يلتحقوا بسلك الجندية في سن الثامنة عشر .وكان الآباء مسئولين عن تعليم أبنائهم دور المواطنة ولم يكن للمرأة تعليم نظامي .

ولم تكن الدولة في أثينا تفرض رقابتها على التعليم كما كان الحال في

---

* كان القانون والرأي العام في أثينا يبيحان قتل الأطفال كوسيلة مشروعة للحد من النسل ومنع تقسيم الأرض وكان في إمكان كل أب أن يعرض طفله للموت بحجة أنه يشك في صحة انتسابه إليه أو أنه ضعيف أو مشوه : ديورانت : جـ ٧ ، ص ٨٠ ، مرجع سابق .

اسبرطة . فقد أدت روح التحرر والديمقراطية في أثينا إلى ترك تعليم الأبناء حراً يخضع لإرادة الآباء . وعلى هذا لم تكن هناك مدارس عامة بل كان التعليم في يدي الأفراد . وكان المدرسون المحترفون ينشئون مدارسهم الخاصة .

وعلى الرغم من هذا هناك ما يشير إلى أن الدولة في أثينا كانت تهتم بأمور التعليم . وليس من المعروف على وجه التحديد متى ظهرت أول مدرسة نظامية في أثينا . ولكننا نعرف أن هناك عدة قوانين للتعليم وضعها المشرع "صولون" في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وهو والد أفلاطون . وقد نصت هذه القوانين على عدم فتح المدارس قبل الشروق وضرورة إغلاقها قبل الغروب وعدم دخول الرجال في مباريات رياضية مع الأولاد وعدم الدخول إلى غرف الدراسة والأولاد بها إلا إذا كان هذا الشخص الداخل ابن المعلم أو شقيقه أو زوج إبنته . ومن يخالف هذه التعليمات يعاقب بالموت . وقد أراد "صولون" بذلك المحافظة على الأخلاق في أماكن العلم . وهذا يعني أنه كان هناك مدارس في القرن السابع قبل الميلاد من أجلها وضعت هذه القوانين . وقد انتشرت المدارس في نهاية حرب اليونان مع الفرس سنة ٤٨٠ ق . م . وقد بدأت الدولة منذ "صولون" في دفع مصاريف الدراسة لأبناء الجنود الذين ماتوا في الدفاع عن المدينة . وإلى جانب قوانين "صولون" التعليمية كانت هناك تشريعات من الدولة تلزم الآباء بالتأكد من من أن أبناءهم قد تلقوا تعليمهم الأولي في القراءة والكتابة والموسيقى والرياضة وأنهم قادرون على السباحة . كما كانت هناك أيضا قوانين سنتها الدولة لتنظيم المدارس من حيث الحجم وقبول الأولاد وأعمارهم وضرورة تعيين معلم "بيداجوج" لكل تلميذ .

وقد إزداد تدخل الدولة في التعليم بقيامها بإنشاء الملاعب والساحات الرياضية الرئيسية في أثينا والإنفاق عليها من الأموال العامة . وكان الأولاد والرياضيون يتدربون ويتبارون فيها . كما أنشأت أيضا المعابد والمسارح . وينبغي أن نشير إلى أن الدولة لم يصل تدخلها في التعليم إلى حد إنشاء العامة المدارس المجانية كما نفهمها اليوم . ولكن كان هناك الأرباخوس الأثيني. وهو الهيئة الرسمية التي كانت تشرف على كل الشئون العامة ومن بينها الإشراف العام على تربية الصغار .

وقد مارست الدولة رقابتها على التعليم العسكري عندما أنشئت الكلية

العسكرية Emphebic College سنة ٣٣٥ ق . م . بناء على قرار المجلس التشريعي الأثيني . وأصبح التدريب العسكري إجبارياً لكل المواطنين بين سن ١٨ - ٢٠ سنة. وكان هذا التدريب تحت إشراف الدولة . وكانت تقوم بالإتفاق عليه . ويرجع هذا التدريب العسكري الإجباري في أصوله إلى ما نادى به أفلاطون وزينون اللذان كانا معجبين بكفاءة جيوش إسبرطة . ولما كانت تفرضه على أبنائها من تدريب عسكري . كما كان إنشاء هذه الكلية رد فعل مباشر للهزيمة التي لحقت بأثينا عندما غزتها مقدونيا عام ٣٣٨ ق. م .

وقد أدخلت الدراسات الفلسفية والخطابية إلى الكلية العسكرية سنة ٣٠٠ ق. م . وخفضت مدة الدراسة بها إلى سنة واحدة بدل سنتين عام ٣٢٩ ق.م . كما أصبح الحضور بها اختياريا . وبهذا فقدت صفتها العسكرية الإجبارية وأصبحت كلية ارستقراطية فكرية شبه عسكرية .

التعليم المدرسي في أثينا :

من الصعب تحديد متى بدأت أولى المدارس النظامية في أثينا كما أشرنا . ولكن هناك إشارات يستدل منها على أن المدارس وجدت في أواخر القرن السابع ق . م والجزء الأول من القرن السادس ق . م . وهناك من يقول بأن المدارس نشأت في أثينا في الجزء الأول من القرن ٧ ق. م . وأنها كانت منتشرة حتى نهاية الحروب الفارسية عام ٤٨٠ ق. م .

وفي العصر الهليني بدأت الدولة تفرض إشرافها على التعليم . وبدأت المدارس تأخذ شكلا محددا في مراحل ثلاث : أولية وتهتم بدراسة اللغة ، وثانوية وتهتم بدراسة النحو ، وعالية وتهتم بدراسة الفلسفة والخطابة . وهذا التنظيم المدرسي هو الذي انتقل إلى الأمبراطورية الرومانية ومن بعدها إلى كافة دول أوربا والعالم الغربي.وسنفصل الكلام عن هذه المراحل في الصفحات التالية:

أولا : التعليم الأولي :

أنشئت المدارس الأولية أو الابتدائية بمعرفة المدرسين الخصوصيين الذين كانوا يحصلون على مصروفات من التلاميذ نظير تعليمهم . وكان هناك ثلاثة أنواع من المعلمين للتعليم الأولي في أثينا : أحدهم للغة والنحو ، والثاني للموسيقى والثالث للألعاب الرياضية . ويقول ديورانت (جـ ٧ ، ص ٨٣) : « إن لفظ

بيداجوج لم يكن يطلق على المعلم بل كان يسمى به العبد الذي يصاحب الغلام كل يوم في ذهابه إلى المدرسة والعودة منها » .

وحيثما وجد المعلم وجدت المدرسة . وكان الآباء يختارون المعلم ويرسلون إليه أبناءهم ليعلمهم . وأحيانا ما كان يتعاون معلم اللغة ومعلم الموسيقى في القيام بعملهما معا في مكان واحد . فكان الأولاد يتلقون تعليمهم من هذين المعلمين في نفس المكان . وكان أكثر المعلمين انتشارا هم معلمو النحو والألعاب الرياضية. وكان الأولاد يقضون بعض وقتهم مع معلم اللغة والبعض الآخر مع معلم التربية الرياضية في البالستيرا . وكان اليوم المدرسي طويلا و يمتد من شروق الشمس حتى غروبها .

وكان منهج الدراسة ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الكتابة والموسيقى والألعاب الرياضية . وأضاف المجددون الحريصون على التجديد في أيام أرسطو إلى هذا المنهج الرسم والتصوير . وكانت الكتابة تشمل القراءة والحساب . وكانوا يستخدمون فيها الحروف لا الأرقام . وكان كل تلميذ يتعلم العزف على القيثارة. وكان الكثير من مواد الدراسة يصاغ في عبارات شعرية وموسيقية . ولم يكونوا يضيعون شيئا من الوقت في تعليم أية لغة أجنبية . ولكنهم كانوا شديدي العناية بتعليم اللغة الوطنية واستخدامها على أصح وجه . وكانت الألعاب الرياضية تعلم أكثر ما تعلم في مدارس الألعاب . ولم يكن الأثيني بعد متعلماً إذا لم يتقن المصارعة والسباحة واستعمال القوس والمقلاع . أما البنات فكن يتعلمن في منازلهن ويتدربن على تدبير شئون المنزل . وكانت أمهاتهن يعملهن القراءة والكتابة والحساب والتطريز والموسيقى والرقص والغناء .

البالستيرا : Palaestra

كان تلميذ المدرسة الأولية وحتى سن ١٦ يقضي بعد وقته من التعليم إلى جانب تعلم الكتابة والقراءة والموسيقى في تعلم الرياضة في الباليسترا . وكان يتلقى فيها تدريبات جسمية على يد معلم الرياضة . وفيها كان يتعلم الجري والقفز والسباحة ورمي الجلة والمصارعة والتحكم في حركات الجسم ورشاقته . وكان الأولاد يتدربون أفرادا أو أزواجا تحت إشراف دقيق . وقد انتشرت البالستيرا والساحات الرياضية في أثينا . وكان يطلق عليها أسماء أصحابها .

وفي القرن الثاني بعد الميلاد أي في الدولة الرومانية ظلت التربية الرياضية وظيفة للبالستيرا والساحات الرياضية العامة في شرق الإمبراطورية الرومانية . أما في غربها في روما فكانت التربية الرياضية إما جزء من التربية العسكرية أو يقوم بها الرياضيون المحترفون في المباريات والعروض التي تقدم في السيرك .

ثانيا : التعليم الثانوي :

كان التعليم بعد المرحلة الأولية بعد سن ١٤ - ١٦ يتمثل في مواصلة التدريبات الرياضية في الساحات الرياضية العامة والدراسة العقلية على أيدي السفسطائيين . وكانت هناك ثلاث ساحات رياضية عامة تنفق عليها الدولة في أثينا . أقدمها هي ساحة « الأكاديمية » والتي منها أخذت أكاديمية أفلاطون إسمها . وكانت هذه الساحة يفد إليها العناصر الأرستقراطية . وثانيها « ساحة الليسيه » التي أسسها بركليز في القرن الخامس قبل الميلاد ومنها أخذ أرسطو إسم مدرسته التي أنشأها بجوارها . وكان إنشاء هاتين الساحتين إستجابة للحركة الديمقراطية في أثينا . وكان يفد إليها بصفة خاصة المواطنون من التجار وأرباب الحرف . وثالثتها ساحة « السيناسارجي » وكانت مخصصة للأجانب والعناصر التي لم تكن تتمتع بحقوق المواطنة الكاملة . وكان يشرف على كل ساحة من هذه الساحات الثلاث موظف حكومي .

أما التعليم العقلي فكان يقوم به السوفسطائيون وكانوا يقومون بتعليم مواد دراسية متنوعة نظير رسوم . وكان لا يأتي إليهم إلا من يستطيع دفع هذه الرسوم. وكان هذا النوع من التعليم غير نظامي . ولم يكن له برامجه الموضوعة ودرجاته أو شهادته مما حدا ببعض دارسي تاريخ التربية إلى القول بأن إطلاق « التعليم الثانوي » عليه هو من قبيل التجاوز وأنه لا يخرج عن كونه نوعا من التعليم اللامدرسي بعد المرحلة الأولى(Butts:p.37). وعلى كل حال فقد كان أهم تأثير للسفسطائيين على التعليم الثانوي هو إدخالهم دراسة النحو والخطابة بين مواده . وكان التدريب العسكري يمثل نوعا من التعليم الذي كان شائعا وعاما للشباب من المواطنين الذين بلغوا سن الثامنة عشرة. ونظرا لأهمية السفسطائيين بالنسبة للتعليم الثانوي فسنفرد لهم السطور التالية لتفصيل الكلام عنهم .

السفسطائيون :

مهد تزايد الحقوق السياسية وقوة الطبقات الدنيا في المجتمع الأثيني إلى تأثير عدد كبير من الناس على الحكم وإنتشار الديمقراطية . وقد فتح ذلك الطريق أمام مدرسة الخطابة وظهور المعلمين الذين تولوا إعداد الشباب للحياة الإجتماعية الجديدة.وقد عاشوا في القرنين الخامس والرابع ق.م.ولم يكن هؤلاء المدرسون السفسطائيون مجرد راغبين في المال.وإنما يريدون إعداد الشباب على منوالهم . فقد كره المحافظون ومنهم أفلاطون فكرة تعليم الشباب ليصبح غنيا ذا نفوذ بدلا من تعليمهم لإعداد الجسم والعقل والشخصية.وكان الإختلاف واضحا بين الإرستقراطيين المحافظين الذين يميلون للفضائل الهوميرية وبين أفلاطون الذي يميل لحياة البحث الفلسفي،وبين السفسطائيين الذين يهتمون بتعليم عالم الطبيعة والإنسان.وينسب بعض المؤرخين والفلاسفة للسفسطائيين تهمة إفساد أخلاق تلاميذهم.وآخرون ينفون عنهم ذلك.ويقولون إنه يجب ألا يفترض أن السفسطائيين - باستثناء حالات نادرة - كانوا يتجاهلون أخلاق تلاميذهم الشبان. ويكفي المرء ليحس بالمثالية الأخلاقية للسفسطائيين أن يقرأ لإيسوقراط أو شيشيرون الروماني.فلم يكن هدفهم تعليم الشباب كيفية الإثراء والقوة فحسب وإنما مساعدة طلبتهم كمواطنين على زيادة الجدية والفعالية على تحسين مصير الإنسان .

والواقع أن الناس يختلفون في تقدير السفسطائيين . فبعضهم يرفعهم إلى السماء . وآخرون ينزلونهم إلى الحضيض يصمونهم ويشينونهم . ويعتبر أفلاطون من أكبر نقاد السفسطائيين إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق . لقد عيب على السفسطائيين أنهم هزوا إيمان شباب أثينا بآلهتهم وأنهم حطموا القانون الخلقي الذي كان يعززه خوفهم من عقاب هذه الآلهة لو خالفوها . وتركوا لهم الحبل على الغارب . وهكذا أضعفت الفردية البحتة المتطرفة خلق الشباب الأثيني . ولكن ألم تتهم أثينا سقراط قبلهم بفساد الخلق وحكمت عليه بالموت ؟ .

يقول ديورانت إن التطور الخصيب في الفلسفة اليونانية إتخذ شكلا له عند السفسطائيين معلمي الحكمة المتجولين والطوافين الذين وجهوا اهتمامهم إلى طبيعتهم وأفكارهم بدلا من توجيهها إلى عالم الأشياء والمادة كما كان الحال في أصل نشأة الفلسفة في اليونان . وكانوا جميعا من أهل البراعة والحذق ونخص

بالذكر منهم على سبيل المثال " جورجياس وهيبياس " . وكان الكثيرون منهم على جانب كبير من الإدراك والعمق مثل " بروتاجوراس " و " بردريقوس " . ومن النادر أن تجد مشكلة أو مسألة في فلسفتنا الحالية العقلية والمسلكية لم يتحققوا منها أو يتناولوها بالبحث . لقد وجهوا أسئلة عن كل شيء . ووقفوا بلا وجل أمام الحرمات الدينية والسياسية . وأخضعوا كل عقيدة ومذهب ونظام للعقل . أما في السياسة فقد انقسموا إلى مدرستين قالت إحداهما كما قال روسو بعدهم ، بأن الطبيعة خير والمدنية شر وأن جميع الناس متساوون بالطبيعة وأن النظم الطبقية المصطنعة هي التي قضت على هذه المساواة وفرقتهم إلى طبقات . وأن القانون هو من اختراع الأقوياء من الرجال ليقيدوا ويحكموا الضعفاء منهم . وإدعت المدرسة الأخرى - وهو ما قاله نيتشه فيما بعد - ، أن الطبيعة وراء الخير والشر وأن الناس بالطبيعة غير متساويين وأن الأخلاق من اختراع الضعفاء لتقييد وكبح الأقوياء وأن القوة هي الفضيلة العليا والرغبة العليا التي يرغب بها الإنسان وأن الدولة الأرستقراطية هي الأفضل والأحكم والأكثر مناسبة من جميع أنواع الحكومات .

كان السفسطائيين مدرسين يتفقون تماما مع التفسير النفعي لأبي فلوري لتاريخ التربية . وكما ذكرنا من قبل تقوم فكرة فلوري على أن المستحدثات التربوية إنما هي استجابة لاحتياجات العصور . وببساطة شديدة فإن السفسطائيين كانوا من المثقفين الذين إجتذبتهم أثينا من جميع أركان اليونان القديمة . وبلغ عدد أفضل من عرف من المعلمين السفسطائيين في النصف الأخير من القرن الخامس وخلال القرن الرابع ق . م .حوالي الخمسة أو الستة إلا أن معظم تواريخ ميلاد ووفاة أغلبهم غير مؤكدة .وهناك سبب معقول يدعو بعض مؤرخي التربية إلى الاعتقاد بأن جورجياس عاش من حوالي٤٨٥إلى٣٨٠ ق.م،وأن بروتاجوراس عاش خلال السنوات ذاتها وهناك بروديكوس وهيبياس أيضا . ونحن نعرف القليل عن السفسطائيين.وذلك يرجع أساسا إلى هجوم أفلاطون(٤٢٧-٣٤٨ ق.م)عليهم في سلسلة من المحاورات مما أفقد العالم الغربي الاهتمام بالكتابة عنهم .

ويفترض السفسطائيين بأن الإنسان مقياس كل شيء . وقدعبر بروتاجوراس وهو كما أشرنا من أشهر المعلمين السفسطائيين عن هذا المبدأ السفسطائي في

كتابه " الحقيقة " . فذكر فيه أن « الإنسان مقياس كل شيء وهو مقياس وجود الأشياء وعدم وجودها » . وقد شرح أفلاطون ذلك في محاورة تيتياثوس فقال : «إن الأشياء بالنسبة لي على ما تبدو لي وهي بالنسبة لك على ما تبدو لك وأنت إنسان وأنا إنسان » .

والمقصود بالإنسان هنا الفرد . ولما كان الأفراد يختلفون من حيث السن والتكوين والشعور . ولما كانت الأشياء تختلف وتتغير فإن الإحساسات تتعدد تبعا لذلك وقد تتناقض . « فقد يحدث أن هواء معينا يرتعش فيه إنسان ولايرتعش منه آخر ، وقد يكون خفيفا على إنسان وعنيفاعلى آخر . فما عسى أن يكون عليه الهواء ؟ هل نقول بأنه بارد أم لا ؟ أم نسلم بأنه بارد لدى من يرتعش منه وأنه ليس كذلك عند الآخر ؟ وإذن فلا يوجد شيء واحد في ذاته . ولايوجد شيئ يمكن أن يسمى أو يوصف بالضبط لأن كل شيء في تحول مستمر . فما نحسه هو موجود على النحو الذي نشعر به . وما ليس في حسنا فهو غير موجود . وعلى ذلك تبطل الحقيقة المطلقة لتحل محلها حقائق متعددة بتعدد الأشخاص وتعدد الحالات لدى الشخص الواحد . وما يصدق على المعرفة يصدق على العمل أيضا . وهكذا يكون الفرد مقياس النفع والضرر والخير والشر والعدل والظلم » .

وبهذا المنطق كان السفسطائيين يناقشون سلطة القوانين والتقاليد . فهي في نظرهم أمور صناعية وليست طبيعية وأن الإنسان هو الذي صنعها واصطلح عليها

وهناك منهجان سوفسطائيان مثلما يوجد فريقان من السفسطائيين أحدهما يركز على العلم الطبيعي . والآخر وله تأثير يركز على الخطابة والسياسة . وقد درس أحد السفسطائيين على الأقل وهو ديمقراطيس (٤٦٠ - ٣٧٠ ق. م) العلم الطبيعي والسياسي إلا أن أميدوكليز ركز على العلم الطبيعي . وقد شارك ديمقراطيس في تأمل مبكر في الفكرة الذرية للبناء الطبيعي وكذلك ركز هيراقليطس ، وبارمنيدس على العلم الطبيعي . وقد برز هؤلاء الرجال في تاريخ العلم والفلسفة . إلا أنهم لم يؤثروا إلا في التعليم العالي الذي ظهر في الجامعات الهلينية المتأخرة .

وكان أهم تأثير للسفسطائيين على التعليم الثانوي الذي أدخلوا عليه دراسة النحو والخطابة بعد القرن الخامس قبل الميلاد .وكان هذا أهم إنجازاتهم التعليمية.

وهو الذي استمر حتى العصور الحديثة . وقد نجح قدامى السفسطائيين رغم هجوم أفلاطون عليهم لأنهم سدوا بحق ما أحس به الكثيرون إنه احتياجات العصر . وعلموا الشباب الأثيني كل ما احتاج إليه من علوم وسياسة ورياضة ومنطق وفلك . وكان تركيزهم على الخطابة .

ويعني تقاضي السفسطائيين رسوما تعليمية عالية أنهم علموا الشباب الأرستقراطي بغض النظر عن اهتمامهم بالديمقراطية . وقد قيل أن بروتاجوراس قد تقاضى عشرة آلاف دراخمة لدراسة استمرت سنتين أو ثلاث سنوات في إحدى الحالات بينما كانت الدراخمة هي أجر يومي لعامل ماهر . إلا أن تكلفة مثل هذه الدراسة قد هبطت إلى حوالي ألف دراخمة فيما بعد حيث توفر عدد أكبر من المدرسين حتى أن قلة منهم كانوا على استعداد لتقديم الدراسة بأجر قليل بلغ ٣٠٠ دراخمة . غير أن هذا المبلغ على قلته يفوق مقدرة أي عامل أو حرفي أو أحد صغار ملاك الأرض . وكم سخر الأرستقراطيون من السفسطائيين الذين يكسبون عيشهم لقاء أجر عن التعليم . ونسي هؤلاء الأرستقراطيون وعلى رأسهم أفلاطون أن المدارس الأخرى كانت تأخذ أجورا دراسية من التلاميذ . وندد إيسوقراط بالسفسطائيين الذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دريهمات معدودة .

ويقول أفلاطون بأن جميع السفسطائيين علموا الشباب تجاهل العدالة لكسب المناقشة . وإن كان ذلك ينطبق على بعض السفسطائيين فإن هذه التهمة ينفيها بعض مشاهيرهم . لقد علم قادة السفسطائيين طلبتهم بأن يحاربوا من أجل العدالة وأن يتعلموا كيفية تمييز القضية العادلة . إلا أن هذا التعليم عند أفلاطون لايجدي حيث يتعذر تعليم الفضيلة . ولاينبغي الاعتماد إلا على الأغنياء والحكماء ومن هم من أصل طيب . وهذا ما نادى به تلميذه أرسطو عند وصفه للأرستقراطيين . ولقد أدار أفلاطون ظهره في الحقيقة لإصلاح حكومة المدينة . وفضل تطوير " المدينة التي يحملها في داخله " . إذ أن المثل الأعلى عند أفلاطون أصبح يتمثل في الكمال الداخلي الذي لاصلة له بالرؤيا السفسطائية عن التقدم الذي ينبغي إحداثه في المجتمع .

ويعارض قدامى السفسطائيين أفلاطون إذ يرون على ضوء علم الأنثروبولوجيا أن المجتمع ينشأ ويتطور . ويمكن أن يتقدم ولو أن الناس تعلموا

توجيه أمورهم وجهة سليمة ، وأساس نوع الحكمة التي يثق فيها السفسطائيون الخطابيون هو علم السياسة والديمقراطية . وهي تتطلب أناسا قادرين على تحديد المعلومات اللازمة في قضايا معقدة وأناسا قادرين على معرفة جميع جوانب المناقشة وقادرين على مساعدة مجموعة ما للوصول إلى اتفاق ما في المناقشات المؤدية إلى قرارات .

ولقد أعلن أفلاطون أن رجال الفكر لاترضيهم الحياة العامة فيتحولون عنها كي يدرسوا حياة الفكر والروح . لذلك فقد ضعف اهتمامه بالسفسطائيين الذين عاونوا الأثينيين في تطبيق الديمقراطية . وقد اختلف مع السفسطائيين إذ أعتقد أن الناس خلقوا مصيرين لمركز اجتماعي وضيع أو رفيع وللعبودية أو القيادة . ولنتذكر أرسطو إذا وصل به الأمر إلى القول بأن بعض الناس خلقوا عبيدا فهكذا أرادت لهم الطبيعة . وزد على ذلك إحساسه بأن المجتمع سيعيش في سلام لو عاد العصر الذهبي الذي شهد من قبل أناسا يعيشون حياتهم في الموقع الذي حددته طبيعة مصائرهم .

ولم يشارك السفسطائيين في هذا الفكر الاجتماعي ، إذ أن الناس في نظرهم طيبون بطبيعتهم . ولقد أعدتهم هذه الطبيعة للحياة الاجتماعية ، إلا أن التربية وحدها هي التي تسمح لهم بتعلم الفنون والحرف اللازمة للحياة في مجتمع سليم. وزد علي ذلك تبجيل السفسطائيين للحرف وأن وظائف الدولة ليست سوى إحداها فحسب . ونجد هنا مرة أخري التمييز البين بين الفكر السفسطائي والأفلاطوني . لقد ميز أفلاطون الأرستقراطي بين الحرف وفلسفة العلم . ولقد ورث العالم الغربي عن أفلاطون فكرة عدم ملاءمة الحرفة أو التكنولوجيا للرجل المهذب وأن التدريب على حرفة لامكان له في التربية الحرة . واختلف السفسطائيون أشد الاختلاف مع أفلاطون في قيمة الحرفة إلا أن صوتهم ضاع في العصور التي تلت .

وكان السفسائيون من المعلمين الجوالين .ولم يكونوا يعلمون الأثنيين في مدارس نظامية ، بل في الشوارع والساحات الرياضية . وكانوا أحيانا يستأجرون غرفا يعلمون طلابهم فيها. وكان بعض السفسطائيين متخصصا في مواد معينة .

وقد بدأ الأثينيون يتعصبون ضد السفسطائيين بعد أن رحبوا بهم في أول الأمر . وربما كان من أسباب ذلك النقد الذي وجهه إليه المحافظون من أمثال أفلاطون.ونظر الأثينيون إليهم كمعلمين ينقصهم عمق الفكر وأصالة الرأي وأنهم

لايتقنون إلا الجدل والحيل الكلامية والمغالطات . بل واتهموهم أخيرا بإفساد الشباب ومساعدتهم على الإنحلال وتحطيم النظم والتقاليد القديمة .

إلا أن آمال السفسطائيين قد تلاشت تحت مجموعة من الظروف . وربما كانت أسوأ ضربة لهم هي الحروب البيلونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ق.م) التي دخلتها أثينا القوية تحت قيادة الحاكم بركليز .ومات بركليز من الوباء ولم يتجاوز عمر الحرب عامين . وتلا ذلك المرارة الحتمية على أيدي أسبرطة . وحمل السفسطائيون خطايا الآخرين .وأعدم واحد من أشهر جماعتهم بتهمة زائفة وهي أنه وأتباعه تسببوا في خراب المدينة بتحويل الشباب عن الفضائل الهوميرية التقليدية والدين القديم .

وصاحب هذا العداء هجمات أفلاطون كما أشرنا . وربما أمكن السفسطائيون الهرب من تلك الهجمات . ولكن أثينا بل في الحقيقة جميع حكومات المدن الهلينية لم تجنح للسلم معا . ولقد ميزت الحروب الداخلية العالم الهليني واستحال وقف هذه الحروب على الرغم من الحركة التي قادها آخر السفسطائيين من أمثال إيسوقراط لتحقيق اليونان الكبرى . إلا أنه فشل وتبدل أو تحول العالم الهليني الذي أحبه . وكان تاريخ التحول ٣٣٨ ق . م . متميزا بحادثتين : موت إيسوقراط ومعركة كارونيا حيث تمكن فيليب المقدوني من توحيد اليونان القديمة في الإمبراطورية الجديدة وأصبحت العاصمة السياسية والثقافية هي الإسكندرية في مصر وليست أثينا في اليونان كما أشرنا .

ثالثا : التعليم العالي :

يشمل الكلام عن التعليم العالي في اليونان المدارس الفلسفية ومدارس الخطابة وسنفصل الكلام عنها فيما يلي :

أ - المدارس الفلسفية :

شهد القرن الرابع قبل الميلاد تطوراً هاماً في التعليم العالي على وجه الخصوص . فقد شهد هذا القرن نشأة المدارس الفلسفية التي وضعت أساس هذا التعليم في أثينا . فأنشأ أفلاطون وهو في سن الأربعين أكاديميته . وأنشأ أرسطو مدرسة " الليسيه " . وقد حققت هاتان المدرستان شهرة كبيرة استمرت لعدة قرون . ومن خلالهما انتقلت أفكار هذين الفيلسوفين من جيل إلى جيل . كما كانتا نموذجا يحتذى نقلته الدول المختلفة حتى وقتنا الحاضر . فالأكاديميات

موجودة الآن في فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وروسيا ، بل وفي بعض البلاد العربية وغيرها من البلاد الأخرى . كما توجد مدارس الليسيه في فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وغيرها .

وقد كرست أكاديمية أفلاطون نفسها لدراسة الفلسفة والمنطق والميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) والأخلاق والسياسة والقانون والأدب والرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك والطبيعة . وكانت تضم ضمن طلبتها بعض النساء لاعتقاد أفلاطون بأن للمرأة قدرة عقلية تشبه قدرة الرجل . أما الليسيه فكانت تعنى بدراسة الفلسفة والمنطق والأخلاق والخطابة والجمال إلى جانب الاهتمام الكبير بالعلوم الطبيعية كالطبيعة والنبات والحيوان والتشريح والطب إلى جانب الميكانيكا والجيولوجيا والجغرافيا .. ويرجع ذلك إلى اهتمام أرسطو نفسه بالعلوم. وقد الحق بمدرسته مكتبة ومتحفا للعلوم . وقد إنعكس هذا الاهتمام على مدرسته. كما كانت كتابات أرسطو في شتى الميادين . ومحاضراته هي أساس الدراسة بهذه المدرسة . وإلى أرسطو يعود الفضل الكبير في تنظيم وتصنيف مجالات المعرفة . وقد كانت قبله لاتعرف التصنيف والتنظيم . وقد حدا ذلك بالإسكندر الأكبر إلى الاهتمام ببحوث استاذه ومعلمه أرسطو وخصص لتمويلها أموالا كبيرة . كما كلف رجاله بجمع مؤلفاته العلمية من كل أجزاء إمبراطوريته الواسعة حيثما سار بجيشه الكبير (Butts : p. 66).

وقد أوجدت الأكاديمية والليسيه التعليم المنظم ذي الطابع الفلسفي على نقيض التعليم غير النظامي ذي الطابع العملي الذي كان يقوم به السفسطائيون. وإلى جانب الأكاديمية والليسيه أنشأ أنتيثينز Antistheness مدرسة الكلبيين Cyn-ics . وهذه المدارس الثلاث أنشئت بجوار ساحات الألعاب الرياضية العامة Public Gymnasium الثلاث في أثينا ومنها أخذت تسميتها . وضمت هذه المدارس الثلاث مجموعات مختارة من الطلاب يختارو ن على غرار الجماعات الصوفية . وكانوا يكونون فيما بينهم حلقات . وكان أعضاء كل حلقة أحيانا ما يعيشون سويا وفق نظام يضعونه لأنفسهم (Ibid).

وخلال القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت مدارس فلسفية أخرى . فقد أنشأ "أبيقور" مدرسته " البستان " التي أخذت إسمها من الحديقة التي أنشئت عليها . كما أنشأ " زينو "Zeno المدرسة الرواقية " ستوا " Stoa . وهي كلمة يونانية

معناها الرواق لأنه أنشأ المدرسة في أروقة أحد المباني وعرفت فلسفة زينو بالرواقية لهذا السبب . وقد نادى الرواقيون بالعيش وفق ما يمليه العقل والسير وفق النظام الطبيعي للأشياء وتقبل صعاب الحياة بروح هادئة . أما المدرسة الأبيقورية فكانت تعتقد أن الخير كل الخير في استخدام العقل في البحث . كما أن السعادة في نظرهم كانت تتمثل في البحث عن اللذة وتجنب كل ما هو مؤلم . وهاتان المدرستان إلى جانب مدرسة الخطابة حققت شهرة كبيرة استحقت معها أن يطلق عليها إسم " جامعة أثينا " .

وكانت هذه المدارس الفلسفية تضم طلابا ومعلمين تجمعهم ثقافة واحدة . كما كانت هناك قواعد تنظم على أساسها حياة الطلاب وكانت هذه المدارس نموذجا للأديرة والنقابات والجماعات الصوفية في العصور الوسطى وما بعدها .

٢ ـ مدرسة الخطابة :

أنشأ إيسوقراط Isocrates(٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق . م) مدرسته المعروفة بمدرسة الخطابة Rhetoric School.وهو غير سقراطSocrates(٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م) المعروف كما أشرنا . ويلقب المؤرخ الشهير " مارو " Marrou إيسوقراط بأنه سيد الخطابة الثقافية . وقد كان إيسوقراط من كبار المعلمين السفسطائيين ومن كبار أصحاب النظريات التربوية من الإغريق . فقد كان طول حياته معلما للخطابة وكان لآرائه تأثير كبير على التربية الإغريقية وامتد إلى التربية الرومانية . وقد اعتبر أن الخطيب الحقيقي ينبغي أن يكون أساسا رجلا ذا طبيعة خيرة فاضلة يهب نفسه في خدمة المصلحة العامة . وقد أوضح أن الخطابة ليست مجرد وسيلة لحث الناس والتأثير على تصرفاتهم وإنما تضع على الخطيب مسئولية العمل من أجل مصلحة ورفاهية الدولة . وقد أكد إيسوقراط على أهمية الفنون الحرة بالنسبة لإعداد الخطيب إلى جانب دراسته لمبادئ الخطابة وأساليبها . كما أكد على أهمية الغرض العملي والنفعي للمعرفة. فالمعرفة ليست غرضا في حد ذاتها وإنما ينبغي أن يكون لها هدف عملي . وقد تنبه إيسوقراط إلى ضرورة التربية كعملية هامة في تكوين الإحساس بالمسئولية الاجتماعية .

وقد كان لآراء إيسوقراط تأثير هام على رواد الخطابة الرومان من أمثال شيشرون وكونتليان . وعلى الرغم من ذلك فإن تأثير آرائه على الفكر التربوي بصفة عامة لم يكن له ذلك الانتشار والذيوع بمثل ما كان لآراء أفلاطون وأرسطو.

وربما يرجع ذلك - كما يشير المؤرخون - إلى أن إبسوقراط كان معنيا بالخطابة كوسيلة لتنمية الديمقراطية والتدريب على المواطنة الصالحة في المجتمع الديمقراطي. وهي نغمة ظلت شاذة بالنسبة للمجتمعات الأوربية . ولم تبرز المفاهيم الديمقراطية بها إلا في فترات متأخرة جدا أي بعد حوالي ألفي عام . وكانت مدرسة إبسوقراط الخطابية أكثر مدارس الخطابة شهرة في القرن الرابع ق.م. وقد إتسمت هذه المدارس الخطابية بالطابع العملي . واستطاعت أن تجتذب الطلاب من جميع بقاع العالم اليوناني.وقد إزدهرت مدارس الخطابة واستمرت خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.وبدأت تفقد قيمتها مع إنهزام أثينا وإنهيار الديمقراطية الأثينية على أثر هذه الهزيمة وإن ظلت هذه المدارس تحيا في ظل الإمبراطورية الرومانية . ويجوز لنا هنا أن نتساءل : كيف نفهم الفلسفة التربوية عند إيسوقراط ؟ وكيف نقارنه بأفلاطون منافسه الأساسي ؟ وقد يكون من الأفضل فهم وجهات نظرهما على أساس أنها متكاملة وليست متعارضة . فإيسوقراط نظر بعيدا على أمل تعليم أفاضل الناس المهارة في شئون المواطنة . وسعى أفلاطون إلى تطوير الإنسان من الداخل . هل هذا يدعونا للتفكير في أن وجهتي نظرهما ممكن أن تكونا مشتركتين معا مثلما نجد في قطبي المغناطيس ؟ أليس من صفات الإنسان الفاضل أن يكون مواطنا صالحا ؟

٣ - المراكز الفكرية والثقافية :

إلى جانب المدارس الفلسفية والمدارس الخطابية كانت هناك مراكز للتعليم العالي في العالم الهليني خارج أثينا في " برجاموم"في آسيا الصغرى و"رودس" و" أنطاكية " و " سمرنا " وغيرها . إلا أن أشهر هذه المراكز جميعا كان مدرسة الإسكندرية حيث كان العلماء والطلاب يفدون إليها من كل الأنحاء.كما كانت مركزا ثقافيا نافست شهرته أثينا.ومن المعروف أن الإسكندر الأكبر غزا مصر وأصبحت جزءاً من إمبراطوريته اليونانية الضخمة في الشرق الأدنى عام ٣٣٢ق.م . وسنفصل الكلام عن مدرسة الإسكندرية كمركز فكري وثقافي في السطور التالية :

مدرسة الإسكندرية ومكتبتها : أسس اليونان الهلينستيون خارج أثينا مراكز ثقافية وتعليمية يشار إليها بالجامعات مثل الإسكندرية وطرسوس ورودس وبرجاموم . وكانت الإسكندرية أشهرها جميعا .وهي لم تكن جامعة بالمعنى

المفهوم . ولكنها كانت متحفا ومكتبة حيث كان الشعراء والعلماء والفلاسفة والطلاب يلتقون من أجل البحث والدراسة . وتعتبر مدرسة الإسكندرية من أعظم إنجازات التربية الهلينستية في مصر . وترتبط شهرتها كمركز ثقافي وفكري بمكتبتها ومتحفها . فلقد جذبت المكتبة طيلة سبعمائة عام أفضل المثقفين الذين لم يتجمع مثلهم في مكان واحد . واحتوت المكتبة على ما يقرب من مليون مجلد. وكان لها أوقاف خاصة تكفي لشراء الأعمال العلمية الكبيرة . وكان ينفق منها عليها . كما أن الإسكندر الأكبر جمع لها بجيشه الجرار المخطوطات والكتب لاسيما مؤلفات أستاذه أرسطو من كل مكان فتحه أو دخله من أصقاع البلاد . وهكذا ضرب الإسكندر أعظم الأمثلة في ولاء التلميذ لأستاذه . كما ضمت متحفا به عينات نادرة وحديقة نباتية ومعرضا للتشريح ومرصدا فلكيا وأجهزة تتصل بالعلوم المختلفة . وكان العلماء الذين يلتحقون بالمتحف يهتمون بالبحث العلمي . ومنهم من كان يهتم بالدراسة الأدبية والفلسفية . وكان مشاهير علماء اليونان مدينين في أعظم نظرياتهم لمدرسة الإسكندرية . فأرشميدس كما أشرنا كان طالبا بها . وكان على اتصال دائم بعلمائها .وتمثل مكتبة الإسكندرية ومتحفها المجهود المنظم الذي بذل لتجميع المعرفة وتقديمها في العالم القديم . وقد ساعدها على ذلك توفر العقول المحبة للعلم والبحث مع ضمان حرية الفكر والتعبير وتوفير الأمال اللازمة .

بدأت محنة مكتبة الإسكندرية في عصر الإمبراطور الرومان ثيودوسيوس في القرن الرابع الميلادي (٣٧٩ - ٣٩٥م) عندما أصدر أمرا بفرض الديانة المسيحية على كل أنحاء الإمبراطورية . وتحت موجة التعصب والإضطهاد ضد التراث العلماني غير المسيحي التي عمت الإمبراطورية خربت المكتبة ونهبت . وذلك بتحريض من أنصار الإمبراطور الروماني وأسقف الإسكندرية (Mulhern : p. 224) وقد إضطهد هذا الأخير الوثنيين غير المسيحيين ومنهم الفلاسفة والعلماء . كما عمت الإمبراطورية في عهده موجة حرق الكتب والمكتبات التي كانت تلقب بالوثنية كما تذكر الكتب التاريخية التي أشرنا إليها . وهكذا أحرقت مكتبة الإسكندرية على يد غلاة المتعصبين المسيحيين ضد التراث الفكري العلماني الذي أنتجته الثقافة الهلينية . وهوما سنفصل الكلام عنه عند الكلام عن التربية المسيحية . وليس من الصحة في شيئ ما ينسب إلى عمرو بن العاص من تهمة حرقها . ويبدو أن المكتبة كانت قد دمرت قبل وصول المسلمين على يد المتعصبين

المسيحيين . ويقول ديورانت إن المكتبة قد أحرقها غلاة المتعصبين المسيحيين في عهد البطريق نوفيلس سنة ٣٩٢ م ، وأن ما بقي منها قد أهمل وضاع معظمه قبل قدوم العرب (ديورانت جـ ١٣ ص ٢٦٣) . ويلاحظ أن تاريخ إحراق المكتبة هنا يختلف عما يذكره مولهيرن الذي حدده بعام ٣٩١م (Mulhern : p. 224).

وتتضح فداحة الخسارة عندما يدرك المرء أن المكتبة كانت تضم وقت تدميرها حوالي مليون مخطوط وأن أغلب العلماء الهلينيين كانوا يقومون بالبحوث من وقت لآخر في الإسكندرية أمثال عالم الهندسة " إقليدس " وعالم الطبيعة "أرشميدس " وعالم الفلك " بطليموس " الذي ألف كتابه " المجسطي Almagest. ونشر بالمكتبة وظل المرجع الرئيسي في الفلك . وقام على نظرية أن الأرض مركز الكون . وهي نظرية كان مسلما بها خلال العصور الوسطى حتي القرن السادس عشر عندما جاء كوبرنيق بأول نقد جدي لها . وقد ترجم العرب هذا الكتاب في عصر المأمون العباسي إلى اللغة العربية ونسجوا على منواله كتاب " الإعراب " . كما ظل كتاب المجسطي أهم مرجع علمي في الجغرافيا لأربعة عشر قرنا من الزمان . كما ظهرت مؤلفات أخرى لمؤلفين آخرين من مدرسة الإسكندرية في الطب والتشريح وغيرهما .

وفي تقويم مكتبة الإسكندرية يقول المؤرخون إنها قد أدت أربع خدمات كبرى للتقدم الثقافي والحضاري . أولها أنها كونت كثيرا من العلماء والباحثين والمعلمين من مختلف الأقطار . وثانيها أن علماءها قاموا بالبحوث المختلفة التي أغنت الفكر الإنساني . وثالثتها أنها حفظت للأجيال التالية إنتاج المفكرين والكتاب والشعراء القدامى . وأخيرا أنها جمعت بين العلماء من مختلف الأمم والأجناس ومنهم اليونانيون والمصريون والهنود والفرس واليهود والسريان . وكانت بحق جامعة فكرية استحقت أن تكون منارة على طريق الفكر الإنساني عبر تاريخه الطويل . والآن وبعد حوالي ستة قرون من حريق المكتبة وتدميرها تتكاتف جهود البشر جميعا على إعادة بناء المكتبة وإحياء مجدها القديم لكن بصورة عصرية تتمشى مع إنجازات القرن العشرين . وهكذا أعيد لمكتبة الإسكندرية مجدها الزاهر التليد . وينبغي هنا أن نشيد بفضل الجهود الدولية والمنظمات العالمية ، كما نشيد بفضل جهود رئيس الجمهورية والسيدة سوزان مبارك قرينته .

مكانة المرأة الأثينية وتعليمها : كان أرسطو على عكس أفلاطون يؤمن بأن المرأة غير قادرة على الأعمال العقلية إلا في حدود ضيقة . ولهذا يجب أن تخضع لإرادة الرجل وأن تربي على طاعته . وكانت مكانة المرأة وضيعة في أثينا. إذ كانت مستعبدة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية . ولم يكن للمرأة سلطان على حياتها . فهي قبل الزواج ملك لوالدها وبعد الزواج ملك لزوجها .وكان الطلاق صعبا لها وسهلا للرجل .

وكانت المرأة رهينة المنزل في ركن خاص بها . ويصف هوميروس الشاعر اليوناني المعروف في " الأوديسا " " بنيلوب " زوجة " أوليسيس " بأنها نموذج للزوجة الشابة المخلصة لزوجها الواقرة في منزلها . وكانت المرأة الفقيرة يسمح لها بأن تخرج إلى البئر لإحضار الماء وأن تظهر بمفردها في الشارع . أما المرأة الغنية فلم تكن تظهر في الشارع بدون غطاء على وجهها وبصحبة محرم أو خادم أو عبد. وكان العبيد من الرجال أو النساء يقومون بقضاء الحاجات لها من الأسواق. وهذا الوضع يشبه إلى حد كبير وضع المرأة في بعض مجتمعاتنا المصرية القديمة وحتى عهد ليس بالبعيد لاسيما في الريف . وكانت نظرة أثينا إلى المرأة أنها ناقصة في قدرتها وخلقها. وكانت البنات تترك أحيانا عند ولادتها وتهجر حتى تموت . فقد كان قتل أو وأد الأباء لأطفالهم مشروعا كما أشرنا . وكانت البنت أكثر تعرضا للموت من الأولاد لأن البنت تربى للغير .

ويحكى أن مجموعة من النساء السائبات (بلا خلاق) بدأت تظهر في المدينة .واستطاعت هذه المجموعة أن تصبح متعلمة . وقد تمتعت هذه المجموعة بحريتها وفرصتها في التعليم . وهي فرصة كانت تحرم على الزوجة أو البنت الشرعية . ويقال إن هذه المجموعة من النساء يؤرخ بها بداية صراع المرأة في أوربا من أجل تحريرها من طغيان الرجل . وكانت هناك مدارس لهؤلاء النساء ، في حين لم تكن هناك مدارس رسمية لغيرهن من النساء الأحرار . وبعضهن من الجميلات أصبحن خليلات لرجال مشهورين من أثينا أمثال أفلاطون وأرسطو .

وكان المنزل إذن هو مجال المرأة الأثينية الحرة . ولم يكن لها فرصة للتعليم في المدارس وإن كان قد سمح لها أحيانا بممارسة الطب أو التمريض . وكان هناك بنات يعملن في مجال التسلية والترفيه كراقصات أو موسيقيات أو أكروبات . ولكن هؤلاء لم يكن من أسر محترمة .

وكانت البنات يدرسن في المنزل . وكان تعليمهن يتم على يد أمهاتهن . فقد كانت الأم تقوم بتعليم إبنتها أمور المنزل والطبخ وتربية الطفل ورعاية الصغار . وبعض الأمهات كن يعلمن بناتهن القراءة والكتابة والحساب والغزل والنسيج والتطريز والرقص والغناء والعزف على بعض الآلات الموسيقية . ومن النساء اليونانيات عدد قليل تعلمن تعليما عاليا معظمهن في الغالب من النساء الماجنات . أما النساء المحترمات فلم يكن تعليمهن يتجاوز مستوى التعليم الابتدائي . ومن الغريب أن مجال الكهانة كان مفتوحا أمام المرأة الأثينية وهو الذي ظل في الشرق إحتكارا للرجل . فكان هناك قسيسات في المعابد وإن كان عددهن قليلا . وربما يرجع ذلك إلى أن اليونان لم يكن لها عقيدة دينية معينة تتطلب تعليما خاصا قبل الخدمة بالمعابد . وإنما كان القسيس أو القسيسة يعين بمعرفة الحكومة ويخضع لأوامرها .

وكان الدين اليوناني مزيجا من عناصر مختلفة شرقية وغربية . فقد عبد اليونانيون عذراء وإبنها وكان من الأشياء المقدسة لديهم صليب من الرخام مثل الصليب المسيحي . وقد كان هذا قبل المسيحية . كما عبدوا "زيوس" إله السماء وإلها آخر للبحر . كما أن آلهة اليونان القديمة كانت تأكل وتشرب وتتكلم مثل البشر ولم يكن لها الصفات فوق العلوية كما في آلهة الشرق كما أشرنا .

وهكذا نجد أن اليونان (أثينا) لم تكن محكومة بالدين كما هو الحال في مصر القديمة . وكانت الحياة وليس الموت كما هو الحال في مصر القديمة محور الاهتمام الكبير . وهكذا تتباين المجتمعات . ولله في خلقه شئون .

التعليم في إسبرطة :

تعتبر إسبرطة ثاني أكبر مدينتين في بلاد الإغريق . وقد تطورت من مجتمع بدائي قبلي إلى دكتاتورية عسكرية أرستقراطية تعكس تفاوت النمو السياسي بين المدن اليونانية . وكانت اسبرطة يحكمها نظام قاس يتحتم على المواطنين الإلتزام به وإلا تعرضوا للتجريد من المواطنة . ولم يكن للآباء سلطان على أبنائهم فقد كان الأطفال يعتبرون ملكاً للدولة . وكان الطفل عند مولده يوضع في حمام من الخمر لإثبات مدى قدرته وتحمله . كما كان الرضيع يعرض على مجلس عام من الكبار ليقرر ما إذا كان يستحق الحياة أو الموت . وكان الأطفال الضعاف أو مشوهو الخلقة يلقون على قمم الجبال حيث يموتون أو تأكلهم الطيور الجارحة أو

يلتقطهم أحد العبيد ليقوم على تربيته والإحتفاظ به لخدمته . أما الطفل الذي يجتاز الامتحان فيرسل إلى المنزل ليقوم والده بتربيته حتى سن السابعة . وعندها تقوم الأم بتسليمه إلى الدولة لتتولى تربيته . فقد كانت الدولة في إسبرطة هي التي تسيطر على التربية . وهي التي تقوم بالإشراف عليها . وهو ما يذكرنا بنظم التربية المعاصرة في الدول الجماعية .

وقد اشتهرت الأم الأسبرطية بمهارتها في تربية أبنائها على التحكم في النفس وتحمل الجوع والألم . مما يعكس تمشى التربية المنزلية مع النمط التربوي العام الصارم الذي تميز به المجتمع الأسبرطي .

هدف التربية الإسبرطية :

كان من الطبيعي أن تتمشى أهداف التربية الإسبرطية مع النظام الاجتماعي الذي يحكمها ويسيطر عليها . وقد استخدمت الدولة في إسبرطة التعليم لخدمة أغراضها .وهي بهذا تعتبر نموذجا للتربية في المجتمعات الديكتاتورية والجماعية في العصور الحديثة . وقد استهدفت التربية الإسبرطية تكوين الجسم العسكري القوي ، وبناء روح الجندية المخلصة المتفانية في خدمة وطنها وتحمل أقصى الصعاب في سبيل ذلك . وكان المثل الأعلى للتربية الإسبرطية يتمثل في تنمية القوة والشجاعة وروح الوطنية والجندية . وقد ضحى الإسبرطيون بكل الصفات التربوية النبيلة من أجل الكمال الجسمي لا العقلي كهدف تربوي أسمى . فقد كان هدفهم تربية أمة قوية لا تقهر .

محتوى التربية الإسبرطية :

تضمن محتوى التربية الإسبرطية التدريب الروحي والخلقي والديني والرياضة الجسمية والعسكرية والأغاني الوطنية وكذلك الموسيقى الحماسية . ولم يهتم الإسبرطيون بتعليم القراءة والكتابة . ومنهم من تعلمها بدافع من نفسه . ولهذا قلما وجد بين الإسبرطيين من كان يعرف القراءة والكتابة . وفي حين كان الإسبرطيين يعتبرون تعلم القراءة والكتابة والموسيقى أموراً غير مرغوب فيها كان الأثينيون يعتبرون عدم معرفتهم بهذه العلوم من الأمور المفزعة . وقد وصف إيسوقراط الإسبرطيين بأنهم أكثر تأخرا من البرابرة . وأنهم قد تأخروا في الثقافة والعلم لدرجة أنهم لايحاولون تعليم أنفسهم القراءة والكتابة . ولم يقتصر إهمال

الإسبرطيين على تعلم القراءة والكتابة بل امتد أيضا إلى دراسة النحو المنطق والحساب والخطابة .

نظام التربية الإسبرطية :

كان النظام التربوي الجسمي والعسكري قاسيا لدرجة أن بعض الشباب كان يموت من جرائه . فقد كانت إسبرطة تعتمد على الشباب القادر على الاحتمال . وكانوا يحملون على قتل الآخرين وسفك الدماء كجزء من تدريبهم حتى يتعودوا على القسوة ورؤية الدم . ومن ثم يمكنهم حماية الدولة . وكان تدريب المرأة مثل تدريب الرجل إلا أنه أقل صعوبة منه . فقد رأت التربية الإسبرطية ضرورة أن تكون المرأة قوية حتى تنجب أطفالا أقوياء .

وكان تدريب الشباب يمتد حتى سن الثلاثين وعندها يجبرون على الزواج ويصبحون مواطنين مع بقائهم كجنود طوال حياتهم . ومنذ سن السابعة كان الأطفال يلتحقون بالمدارس الداخلية حيث يعيشون حياة أشبه بحياة الجنود في المعسكرات . وكانوا يقسمون إلى فرق . ويعهد بالإشراف على كل منها إلى شاب في سن العشرين ممن أتموا تدريبهم . وبعد سن الثانية عشر ينقل الأولاد إلى تدريب عسكري عنيف لمدة عامين تحت الإشراف المباشر للجيش . وبعدها يصبحون أعضاء عاملين فيه لمدة عشر سنوات . وفي سن الثلاثين يصبح الشبان مواطنين كاملين . ويجبرون على الزواج مع بقائهم كجنود كما أشرنا .

تعليم البنت ومكانتها :

لم يكن الإسبرطيون يهتمون بتعليم أساسيات المعرفة كالقراءة والكتابة والحساب للذكور والإناث على السواء . وإنما كانوا يهتمون بالتدريب الجسمي . وقد سبق أن أشرنا إلى تلقي البنات تدريباً مماثلا للرجال . وكانت البنات تلبس ملابس مشابهة لملابس الأولاد إلا أنها أطول قليلا ومفتوحة من الجانبين . وكانت البنات تتعرض للتمرينات الرياضية الصعبة كالجري والسباحة ورمي الرمح والمصارعة . كما كن أيضا يتعلمن الرقص والغناء .وكانت البنات تعيش في المنزل . ولم يكن هناك ما يحول دون اختلاطهن بالأولاد والرجال . وكانت المرأة لاتقل عن الرجل في المكانة . وحظيت بالإحترام في المجتمع الإسبرطي على عكس كثير من المجتمعات آنذاك ومنها المجتمع الأثيني والمجتمع الهندي .

تقويم التربية الإسبرطية :

في تقويم التربية الإسبرطية يقول عنها المؤرخون لقد نجحت في خلق جنود قساة غلاظ شجعان دائبين على حماية دولتهم . لكنها لم تنتج فنانا واحدا أو فيلسوفا واحدا أو عبقريا على عكس التربية اليونانية . ولم يكن لها دور في تقدم المدنية والإنسانية وإنما كانت نموذجا للتربية في دولة تسلطية تسودها الروح العسكرية التي تزدهر في الحرب وتنطفئ في السلم . وقد انتقد من قبل أرسطو هذه الدول العسكرية بقوله : إنها تكون في مأمن في الحرب لكنها تفشل حينما تحقق امبراطوريتها ويعم السلم . ففي هذه الحالة تصبح مثل النعل غير المستعمل. واللوم على مشرعيهم الذين لم يعلموهم كيف يحبون في زمن السلم (Barclay : p. 60) . كما أن التربية الإسبرطية أيضا أنتجت نساء تجردن من كثير من أنوثتهن .

المعلمون :

اختلف وضع المعلمين في اسبرطة عنه في أثينا . فقد كان المعلمون في إسبرطة من موظفي الدولة على عكس نظرائهم في أثينا . وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الأمور المتعلقة بالمعلمين في أثينا . وكان هناك اختلاف في النظرة إلى المعلم في أثينا بوجه عام . فعلى حين كانت النظرة إلى معلم المدرسة الأولية بسيطة كان الأمر مختلفا بالنسبة للسفسطائيين وغيرهم من المعلمين العظام الذين وصلوا إلى منزلة عالية في أثينا من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو . وقد يرجع ذلك إلى أن معلمي المدرسة الأولية لم يكونوا يحظون باحترام المجتمع الأثيني . فقد ذكر بعض كتاب اليونان أن معلمي اللغة كانوا من بين الذين لم ينجحوا في أية مهنة أخرى . كما أن قيام العبيد (البيداجوج) بوظيفة التدريس قد ساعد على الانتقاص من المهنة رغم أن هؤلاء العبيد لم يكونوا من الطبقة الدنيا بالضرورة لأن كلمة العبيد كانت تطلق في المجتمع الأثيني على أسرى الحروب . وقد يكون هؤلاء الأسرى من أصحاب المكانة في بلدهم قبل أسرهم .وهذا التمييز بين مدرسي التعليم الأولي وغيرهم مازال قائما حتى الآن في كثير من النظم التعليمية المعاصرة .

أعلام الفكر اليوناني

قد يكون القرن الرابع قبل الميلاد أخصب القرون في العالم الغربي القديم . ذلك أن مؤرخ التربية يجد فيه عمالقة الفكر الإغريقي من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو . وقد امتد تأثير العمالقة إلى جميع جوانب الفكر الإنساني وأصبح فكرهم تراثا مشتركا للإنسانية جمعاء . وسنعرض في الصفحات التالية لشخصياتهم وآرائهم الفلسفية والتربوية لما لها من أهمية خاصة في تطوير النظرية التربوية وتطبيقاتها في الشرق والغرب على السواء .

١ - سقراط (٤٧٠ ق.م - ٣٩٩ ق.م) :

ولد سقراط في أسرة متواضعة . فقد كان أبوه " نحاتا " . وقد ولد بأثينا وعاش فيها كل حياته . وكان سقراط فقيرا يسير وسط تلاميذه بثوبه المهلهل غير مهتم بفقره . ومن الصعب أن يعرف أحد كيف عاش سقراط لأنه لم يعمل في حياته قط . ولم يكن يهتم بغده . وكان يهمل زوجته وأولاده . ولم يكن يوفر لهم من الطعام سوى الخبز . وكان في نظر زوجته كسولا لايصلح لشيئ . لكن سقراط كان في الواقع حكيما يبحث عن الحكمة بشغف واهتمام . وقيل إن صوت الألهة قد أعلن أن سقراط أحكم أهل اليونان . وفسر ذلك على أنه استحسان لمذهب الشك أو اللأردية (من لا أدري) التي كانت نقطة البداية في فلسفته «لا أدري سوى شيء واحد هو أنني لا أدري شيئا » .

وهو الفيلسوف والمفكر الوحيد الذي جاد به القرن الخامس قبل الميلاد وإن أمتدت حياته حتى بداية القرن الرابع ق . م . ولم يترك سقراط أي مؤلف مكتوب عن نفسه أو أفكاره . وكل مانعرفه عنه مأخوذ عمن كتبوا وتحدثوا عنه . ويذهب كثير من المؤرخين والفلاسفة إلى رؤية سقراط وأفكاره من خلال محاورات أفلاطون التي مثل فيها سقراط الشخصية الرئيسية . وعلى هذا يصعب تحديد ما إذا كانت الأفكار الواردة على لسانه هي أفكاره الحقيقية أم لا .

ويعتبر سقراط من المعلمين العظام . ويمكن تصنيفه على أنه من عظام السفسطائيين لأنه درس علومهم وسار على منوالهم وآمن بفكرهم وإن اختلف عنهم . فهو أثيني أصيل . كما أنه كان لا يتقاضى رسوما على تعليم طلابه الشباب الأثيني الذي كان يلتف حوله لإعجابه به . واعتبر التدريس أمانة سماوية

في عنقه وإن قبل الهدايا منهم . كما أنه لم يأخذ بمنهج السفطائيين في التشكيك. وقد اعتبر سقراط المعرفة أساس الوحدة الاجتماعية وأساس السلوك الصحيح . وأدى به ذلك إلى الاهتمام بماهية الإنسان والأخلاق باعتبارهما أهم شيئ للإنسان . وقد ذهب إلى أن أساس المعرفة هو أن يعرف الإنسان نفسه . ذلك أنه آمن بمبدأ السفسطائيين « إن الإنسان مقياس كل شيئ » . ولذا كان أول واجب عليه أن يبدأ بمعرفة نفسه . وقد إتخذ لنفسه شعاراً : « إعرف نفسك بنفسك ». واتجه إلى سبر غور النفس الإنسانية . فقد كان سقراط مهتما بعالم الإنسان وحده. وكان يرى أن المعرفة الحقة لإنسان إنما تتأتى من النظر في الإنسان نفسه لا بالتأمل في عالم النبات والكائنات والنجوم . وهكذا حول سقراط اهتمام الفلسفة من المشكلات الميتافيزيقية ودراسة الفلك وعناصر الكون إلى دراسة النفس الإنسانية مما حدا بالمفكر الروماني المشهور شيشرون إلى القول بأن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض .

وكان سقراط في بعض آرائه يعكس سخطه على الفوضى والديماجوجية التي وصلت إليها الديمقراطية الأثينية . ولذلك حمل على النظام الديمقراطي الأثيني . وانتقد المساواة المسرفة التي قام عليها كما انتقد تأثير أعداد المنتخبين على عملية الانتخاب . ومع أنه آمن بالنقد الحر والحوار المتبادل إلا أنه ذهب إلى القول بأن بناء المجتمع الأثيني يجب ألا يكون على أساس الرأي الفردي وإنما على أساس الرأي الجماعي والمثل العليا للحق والمعرفة التي تحظى بالقبول من الجميع.

كان يرى أن الأهداف الحقيقية للتربية تتمثل في تنمية قدرة الفرد على التفكير حتى يصل إلى المعرفة بنفسه . وهذه المعرفة في ذاتها هي أساس السلوك الصحيح . كما تتمثل في معرفة الحكمة والفضيلة التي تحقق للفرد النجاح والسعادة في حياته . وهي أفكار ثاقبة من سقراط . فما زالت التربية حتى اليوم تعتبر ذلك هدفها الأسمى .

كان لطريقة سقراط في التدريس أهمية تربوية خاصة لدراسي التربية والمعلمين . فقد شهر بالطريقة التي عرف بها ونسبت إليه ونعنى بها طريقته في توليد الأفكار والمعاني من خلال المناقشة والسؤال والجواب . وهكذا كانت «الطريقة السقراطية» تقوم على تنمية المفاهيم من خلال التساؤلات . كما كان في مناقشته يصر على التعبير الدقيق عن الألفاظ والمعاني موضوع المناقشة .

كانت عادة سقراط أن يبدأ حواره بسؤال بسيط عن بعض الأشياء متظاهرا بالجهل ليتمكن من خلال الإجابة معرفة أفكار محاوره عن الموضوع ويتظاهر سقراط مبدئيا بقبول هذه الأفكار والدفاع عنها . ثم يتدرج في المناقشة بتوليد الأفكار والمعاني حتى ينتهي بإيقاع محاوره في التناقض أو الإعتراف بخطئه أو عجزه عن الوصول إلى نتيجة مقنعة . وكان رائد سقراط في هذا الحوار الوصول إلى الحقيقة لا المغالطة والتشكيك . فقد أشرنا إلى أنه رفض الأخذ بمبدأ السفسطائيين في التشكيك . ومن خلال هذا الحوار وتوليد المعاني كان سقراط يستثير تفكير تلاميذه ويحملهم على إعمال الفكر في الموضوع الذي يناقشونه . وهي نقطة لاشك تثير اهتمام معلمي اليوم .

كان من الضروري ألا تعجب آراء سقراط بعض معاصريه لاسيما أنه كان يسفه الثوار والخطباء والسياسيين . وكان من الطبيعي أن يكرهوه وأن يثوروا ضده. وجاء أقدم طعن إليه من أرستوفان الذي اتهمه بالكفر بآلهة المدينة وبتعليم التلاميذ الباطل ضد الحق . وأعن أن القصاص يكون بإعدام سقراط وتلاميذه جميعا . وقد أعدم سقراط بالفعل . وشرب السم راضيا عن نفسه .وهو بهذا ضرب أروع الأمثلة على حرية الفكر والحرية الأكاديمية التي تعتبر معلما رئيسيا من معالم الجامعات ومراكز البحوث وضمانا من ضمانات الفكر الحر في المجتمعات الديمقراطية .

٢ ـ أفلاطون (٤٢٧ ق.م.ـ ٣٤٧ ق .م .) :

كان أفلاطون أرستقراطيا على عكس سقراط الذي كان من أصل متواضع من الثروة والمكانة . وهذه النشأة الأرستقراطية تفسر كثيرا من آراء أفلاطون . فقد عبر أفلاطون عن احتقاره للرجل العادي واحترامه الشديد للصفوة المثقفة . ووالده هو صولون الذي يؤثر عنه قوله عندما سئل : ما أصعب الأشياء على الإنسان ؟ فقال : أن يعرف عيب نفسه ويترك ما لا يعنيه(أبو الحسن العامري:ص ٢١٨).

كان أفلاطون في آرائه متأثرا أيضا بمصر الفرعونية . وهي إحدى البلاد التي زارها وأقام بها في عين شمس واتصل بمدرستها الكهنوتية . وأشار إلى الممارسات التربوية بها في كتابه " القوانين " الذي يعتبر نتاج شيخوخته . وكان من أبرز الأفكار المصرية التي تأثر بها اعتقاده بخلود الروح ومحاكمة الموتى

والثواب والعقاب في العالم الآخر .وهي كلها معتقدات فرعونية . كما أن نظريته في " الأفكار " تعتبر في أساسها فكرة الفراعنة عن " الكا" أو القرينة .

قبل كتاب القوانين ألف أفلاطون كتاب " الجمهورية " الذي يعتبر نتاج شبابه. وكلا الكتابين يضم أهم آرائه التربوية . وفي كلاهما يعارض فكرة الديمقراطية . وهو بهذا ينحو منحى أستاذه سقراط في سخطه على ما آلت إليه الديمقراطية الأثينية . واعتبر الحكومة الديمقراطية أسوأ أنواع الحكومات . أما أفضلها فهي حكومة الفرد المستنير .

لقد شاهد أفلاطون موت أستاذه سقراط . ووصفه بكلمات مؤثرة من أروع ماكتب . وكان لهذا المصير المحزن أثره على أفلاطون .فقد وجد أن الديماجوجية الأثينية هي التي كانت سببا في موت أستاذه . ولهذا أمتلات نفسه كأستاذه إحتقارا لها وكراهية للجماهير والغوغاء التي ارتبطت بها . يضاف إلى ذلك نشأة أفلاطون الأرستقراطية . ولكل هذا حمل على الديمقراطية الأثينية ورأى ضرورة القضاء عليها واستبدالها بحكم الأفضل والأعقل من الرجال . ولقد عاب على هذه الديماجوجية أنها تفترض أن كل شخص يحصل على أكثر الأصوات يستطيع أن يدبر الولاية أو المدينة . وهو إفتراض خاطئ لأننا حتى في المسائل البسيطة نعتمد على المختص وضرب مثلا لذلك بصناعة الأحذية فإننا نعتمد على المختصين في صناعتها . وعندما نصاب بالمرض نذهب إلى الطبيب المختص . فما بالك بالدولة إذا أصابها المرض ؟ ألا يجدر بنا أن نبحث عن أفضل الرجال وأحكمهم وأعقلهم لتدبير أمورها ؟ . وهذه وجهة نظر تخضع للمناقشة . ويمكن الرد عليها . والحكام مهما كانوا متخصصين يحتاجون لمشورة الآخرين . ومن الحكم المأثورة : شاور سواك إذا نابتك نائبة وإن كنت من أهل المشورات . فالعين ترى ما دنا منها وما بعد ولا ترى نفسها إلا بمرآة .

تربية الحكام :

رأى أفلاطون حماية حكام البلاد وحماتها من إستغلال نفوذهم لجمع الثروة ولتحقيق المكاسب الشخصية المادية والنفعية بإقامة نظام جماعي لهم فلا يقتنون أملاكا إلا الشيئ الضروري جدا . ولا يملكون بيوتا خاصة بهم ذات قضبان حديدية ومزالج مغلقة في وجه من يفكر في دخولها . وتقدم لهم أقواتهم بما فيه

الكفاية . ويجب ألا يمسوا الذهب والفضة أو يتعاملوا بهما أو يتخذوا منها حليا يلبسونها أو يقتنونها . ففي ذلك خلاصهم وخلاص الدولة لأنهم لو إمتلكوا البيوت والأراضي والأموال الخاصة والفضة فإنهم يتحولون إلى مديري منازل ومزارعين لا حكاما وحراسا للبلاد . ويتحولون إلى أعداء وظغاة ضد الشعوب . ويصبحون كارهين ومكروهين متآمرين ومتآمر عليهم . وتكون ساعة الدمار لهم وللدولة أقرب إليهم من أيديهم .

وتمشيا مع النظام الجماعي الأفلاطوني يجب على الحكام أن يعيشوا عيشة بسيطة تقدم لهم فيها ما يلزمهم لمعيشتهم من ضروريات الحياة . ويعيشون سويا في حياة اجتماعية أشبه بالأديرة أو المعسكرات يأكلون سويا كما يفعل الكهنة . وينامون معا في معسكر واحد كالجنود . بل دعا إلى شيوعية النساء بينهم حتى تتحرك نفوسهم من أثرة النفس وأثرة العائلة . وتكون حياتهم خالية من القلق والمتاعب مقصورة على زوجاتهم بل للشعب بأسره . وحتى أطفالهم لن يكونوا على وجه التعيين والتخصيص . بل يؤخذ أطفالهم من أمهاتهم عند ولادتهم لتربيتهم تربية مشتركة بعيدة عن العائلة . وبذلك تضيع أبوتهم . وتعنى جميعالأمهات بأطفال الحكام والقادة . ويصبح كل ولد أخا للآخر وكل بنت أختا للأخرى .

حق النساء :

لايمنع أفلاطون حق النساء في الوصول إلى أعلى مراتب الدولة إذا نجحن في جميع الامتحانات . فهو لا يفرق بين الرجل والمرأة في التعليم والعمل . ولها نفس الفرص حتى مرتبة الحكام . وهذا يعني أن تقسيم العمل في نظر أفلاطون يجب أن يكون قائما على المقدرة والأهلية والكفاءة لا على الجنس والنوع . وكان يؤمن بتساوي الجنسين ، الرجل والمرأة لأول مرة في التاريخ . ولكنه قال إن النساء بصفة عامة أقل من الرجال وإن كان بعض النساء أحسن من الرجال .

حق التجار والعمال والفلاحين :

أباح أفلاطون لطبقة التجار والعمال والفلاحين الاحتفاظ بالملكية الفردية . ويحق لها اقتناء الأملاك الخاصة والعائلات والأسر الخاصة . لكنه اشترط أن يقوم الحكام بتنظيم التجارة والصناعة لمنع الإفراط في الثروة والفقر . وكل شخص يملك

أكثر من أربعة أضعاف الحد المتوسط لما يملكه المواطنون عليه أن يدفع هذه الزيادة إلى الدولة .

الإيمان بالله :

إن أفلاطون يعتقد أن الشعب لايمكن أن يكون قويا ما لم يؤمن بالله . وهو إله حي يستطيع أن يحرك الخوف في القلوب التي استولت عليها الأثرة والأنانية. ويحملها على الاعتدال في نهمها وشرهها والسيطرة على عواطفها . يضاف إلى الإيمان بالله الإيمان بوجود حياة أبدية في الأخرة . لأن الإيمان بالحياة الأخرى يمدنا بالشجاعة والقوة في مواجهة الموت . وهذا الإيمان لا يضرنا .وقد يكون خيرا كبيرا لنا ولأطفالنا . لأننا إذا كنا نشرح ونبرر كل شيء لعقولهم البيسطة فإننا سنواجه وقتا صعبا عندما يبلغون العشرين من أعمارهم .

الدولة المثالية :

لقد تصور أفلاطون دولة مثالية وصفها في كتابه " الجمهورية " بأنها التي يعيش فيها ثلاث طبقات اجتماعية : رجال الذهب ورجال الفضة ورجال النحاس . ويرى أن الآلهة هي التي رأت تقسيم الناس هكذا .أما رجال الذهب فهم الفلاسفة الذين يتحلون بالفضيلة . وهم الذين يحكمون الدولة . أما رجال الفضة فهم العسكريون حماة الدولة . ويجب أن يتحلوا بالشجاعة . أما رجال النحاس فهم العبيد الذين يقومون بخدمة الدولة . وعليهم الطاعة لرؤسائهم والتحلي بضبط النفس . وعلى كل واحد أن يؤدي الواجب الذي وهبته الآلهة الإمكانيات لتأديته. وقد قابل أفلاطون بين تقسيمه لطبقات الناس وتقسيمه للنفس إلى نفس عاقلة فضيلتها الحكمة ونفس غاضبة فضيلتها الشجاعة ونفس شهوانية فضيلتها العفة. لأن المجتمع في نظر أفلاطون ليس إلا صورة الفرد مكبرة . وقد شبه أفلاطون النفس الإنسانية بعربة يجرها جوادان أحدهما جواد أصيل هو القلب وآخر شرير وهو الشهوة . أما الحوذي الذي يقود العربة ويتحكم فيها فهو حوذي ماهر هو العقل الذي يستطيع أن يمنع القلب من الإندفاع والتهور ويجبر الشهوة على السير في الطريق السليم . وهكذا يكون العقل السيد الآخر المتحكم في العواطف والرغبات . وتتحقق سعادة الفرد باتزان هذه العناصر في ترتيبها . وينعكس الأمر إذا عجز العقل عن التحكم والسيطرة في العواطف والرغبات .

فعندها يشط الجوادان بالعربة وفقا لهواهما .ويصبح الحوذي عاجزاً عن قيادتها والتحكم فيها .

حاجة الإنسان لبني جنسه :

ينقل أبو الحسن العامري عن أفلاطون قوله عن العمران الإنساني وحاجة الإنسان لغيره من بني جنسه فيقول (ص ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧) : « إنه لما كان كل واحد من الناس لايفي بتمام ما يحتاج إليه في بقائه احتاج إلى معاونة أبناء جنسه فيه واحتاجوا إلى مثل ذلك منه . فاضطروا إلى الاجتماع والمشاركة ولذلك اتخذت القرى والمدن . وبيان ذلك أن الواحد لايفي بتمام ما يحتاج إلا بالآلات وتحتاج كل آلة إلى صنعة وأدوات . وكل أداة تحتاج صنعة أيضا . ولا صنعة إلا بصانع. ويحتاج ثقل كبير من الآلات إلى دواب . . وهو في المثل كأجزاء السلسلة المتعلقة بعضها ببعض . »

وهذا الكلام يذكرنا بكلام مشابه للجاحظ يورده العامري في ص ٢٥٧ . يقول الجاحظ : « إعلم بأن حاجة الناس بعضهم إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم وخلقة قائمة في جواهرهم محيطة بجماعتهم وثابتة لاتزايلهم . . وذلك أنه ليس أحد يستطيع بلوغ حاجته بنفسه من دون الاستعانة بغيرة . . والله لم يسخر للناس جميع خلقه إلا وهم متحتاجون إلى جميع خلقه .. والحاجة حاجتان : قوم وقوت ولذة وإمتاع . فسبحان من جعل في ارتباط البعض بالبعض تمام المصلحة ».

وهذا الكلام الذي نقله العامري عن أفلاطون يذكرنا أيضا بكلام مشابه عند ابن خلدون في مقدمته (ص ٤٢) إذ يقول :

« . . . إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء . . . فقوت يوم من الحنطة مثلا لا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ . وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعيد وآلات لاتتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري . وهب أنه يأكل حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله .. إلى أعمال أخرى .. من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل . ويحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة . . . فلابد من إجتماع . . . أبناء جنسه ليحصل

القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدرالكفاية من الحاجة . وكذلك يحتاج كل واحد في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه . . وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء . ولا يحصل له دفاع عن نفسه . . فيكون فريسة للحيوانات ويعالجه الهلاك . ويبطل نوع البشر »

أهم آرائه التربوية :

كان أفلاطون مثل أستاذه سقراط معنيا بالمشكلة الأخلاقية . وكان يبحث عن مجتمع فاضل مثالي يعتقد أن التربية هي الوسيلة الفعالة لخلقه والمحافظة عليه . وكان يرى أن الواجب الأساسي للدولة هو تشكيل مواطنين فاضلين . وأن الدولة في نظره يجب أن تكون علمانية وكذلك التربية . كما أن التربية هي أساس بناء الدولة والمحافظة عليها .

وكانت فلسفته الناضجة تقوم على الورع الديني والتضحية وكبت الشهوات والتخلص من ملاذ الحياة ومتاعها وتحمل آلام الجسم وتعذيبه . ولذا ارتبطت فلسفته بالتصوف الشرقي وأصبحت فيما بعد أساسا للرهبنة المسيحية .

وفيما يتعلق بطبيعة الإنسان آمن أفلاطون بسمو العقل على الجسم وبثنائية الروح والبدن . والروح خالدة أما البدن فمآله الفناء . كما آمن بالفروق الفردية بين الناس وأن كل فرد مصير لما خلق له .

وبالنسبة لطبيعة المعرفة ذهب أفلاطون إلى القول بأن المعرفة في نظره هي الصورة الذهنية وما يتصل بها من فهم للواقع والأفكار .والآلهة وحدها هي التي خلقتها وهي التي لديها المعرفة الكاملة للأفكار .

ويرى أفلاطون أن السلوك الإنساني يتأتى من ثلاثة مصادر رئيسية هي : الرغبة والعاطفة والمعرفة . وأفعال الفرد تحركها الرغبة وتدفئها العاطفة وترشدها المعرفة . وقد أكد على أهمية المعرفة في توجيه السلوك وقال إن الشعب بغير هدى المعرفة جمهور بغير نظام وقطيع بلا راع .

وكان أفلاطون يعتقد أن التربية تخلق الكمال الإنساني والاجتماعي . وهي نفس الفكرة التي ترددت فيما بعد لدى كثير من المربين من أمثال بستالوتزي وجود ديوي وكان يعتقد أيضا بتساوي المرأة مع الرجل في التربية والتعليم وفرص العمل كما أشرنا ونادى بأن يقوم الرجال بتعليم الأولاد كما تقوم النساء

بتعليم البنات .

وتمشيا مع تقسيمه الطبقي قصر التربية والتعليم على طبقة الحكام والجنود. وفكرة أفلاطون عن تربية الطبقة الثالثة التي تشمل التجار والزراع والصناع وأرباب الحرف غير واضحة . ويمكن أن يتدربوا عن طريق التلمذة الصناعية لإعدادهم للحرف المختلفة .

ومع أن أفلاطون قسم الناس إلى طبقات الذهب والفضة والنحاس فإنه لم يخلد هذه الطبقية . إذ ذهب إلى القول بأن الأبوين الذين ينتميان إلى طبقة الذهب قد ينجبان ولدا يؤول أمره إلى أن يصبح من طبقة الفضة إذا لم يثبت جدارة . والعكس صحيح بالنسبة لإبن طبقة الفضة قد يصبح من طبقة الذهب إذا أثبت قدرة وكفاءة في التعليم . وقد يقفز آخرون من طبقة العمال إلى طبقة الحكام وهكذا . وتعتبر هذه أول إشارة إلى أهمية التعليم ودوره في الحراك الاجتماعي كما نفهمه اليوم .

وهكذا جعل أفلاطون التعليم أساس الحراك الاجتماعي في المجتمع وهي فكرة ثاقبة . ويقول ديورانت مؤكدا هذا المعنى : لا يوجد نظام طبقي في أرستقراطية الديمقراطية ولا وراثة للمناصب أو المميزات أو عقبات أمام المواهب بسبب فقر التلاميذ أو عدم مقدرتهم على مواصلة دراستهم حيث يبدأ إبن الحاكم دراسته على قدم المساواة والمعاملة مع ابن ماسح الأحذية وغاسل الصحون . فإذا كان إبن الحاكم غبيا فإنه يسقط في دراسته في الامتحان الأول . وإذا أثبت إبن ماسح الأحذية أو غاسل الصحون مقدرة فإن الطريق مفتوح أمامه ليصبح حاكما في الدولة .

وقد اعتقد بأن وظيفة التربية هي تنمية الفضيلة والمواطنة الصالحة لدى الأفراد . وأن عليها أن تدرب العقل وتعلمه على الأمور الحسية وذلك عن طريق إيقاظ الملكة العاقلة لدى الإنسان . وقد ذهب أفلاطون إلى القول بأن هذه الملكة العاقلة لاتعمل في الطفولة وإنما في دور المراهقة .

وقد ظل التدريب العقلي وما زال رئيسيا للتربية في كل المجتمعات على اختلاف العصور . وقد أدت هذه الفكرة بأفلاطون إلى جانب احتقاره للفنون العملية إلى التمييز بين التعليم النظري والتعليم الفني . وأن الأول أرقى من الثاني وهي فكرة سيطرت على الفكر التربوي قرونا طويلة من الزمان .

أدب التعلم :

ينقل أبو الحسن العامري عن أفلاطون كلامه في أدب التعلم فيقول(ص٣٦٦):

« قال أفلاطون : وأول ما ينبغي أن يؤخذوا به (أي الصبيان) أدب التعلم. ومن آداب التعلم حسن الإقبال على المعلم ، وحسن الإصغاء وترك الالتفات ماداموا بحضرة مؤدبيهم . وترى الفكر فيما سوى ما يعلمون وقت ما يعلمون. » ويورد العامري مباشرة بعد كلام أفلاطون كلاما مشابها لوهب بن منبه فيقول : «وقال وهب بن منبه أدب الاستماع سكون الجوارح وغض البصر وقطع الفكر عما سوى الذي يسمع والعزم على العمل ».

التعليم الأفلاطوني :

تصور أفلاطون دولة مثالية تبدأ بتربية الأطفال دون العشر سنوات تربية بعيدة عن تأثير آبائهم . لأن بناء هذه الدولة في نظره لا يقوم في ظل أطفال صغار أفسدهم الكبار . ويجب أن يمنح كل طفل منذ بداية تربيته مساواة تامة في فرص التعليم . لأن أحداً لا يعرف من أين يشتعل ضوء العبقرية . ويجب أن نبحث عن هذا الضوء في كل مكان وفي كل نوع وجنس . ونقطة البداية في نظره هي تعميم التعليم لكل الأطفال .

وفي العشر سنوات الأولى من حياة الطفل ينبغي أن يكون التعليم مهتما بالدرجة الأولى بتربية أجسام الأطفال . ولهذا يجب أن يقام في كل مدرسة ملعب وساحة رياضية . ويجب أن يشغل اللعب والرياضة البدنية اهتماما في منهج التعليم . لكن مجرد الرياضة البدنية والتدريب الجسدي لايكفي للطفل . لأن ذلك قد يجعله خشنا . فكيف السبيل إذن إلى تلطيف طبيعته ؟. قد يكون ذلك عن طريق الموسيقى لأنها تؤدي إلى الإيقاع والإنسجام والتناسق وتحمل الجمال إلى الروح . فالموسيقى تضفي لطفا وصحة على الروح والجسم . إلا أن أفلاطون يحذر من الإفراط في الموسيقى فيقول إن الإفراط في الموسيقى خطير كالإفراط في الرياضة . فكما يؤدي الإفراط في الرياضة إلى توحش الإنسان كذلك يؤدي الإفراط في الموسيقى إلى ضعف الإنسان وليونته . ولابد إذن من دمج الرياضة بالموسيقى معا .

ويقدم لنا أفلاطون مبدأ تربويا سليما يقوم على أساس تقديم عناصر التعليم إلى عقل الطفل بغير إكراه أو إرغام . لأن الرجل الحر ينبغي أن يكون حرا أيضا في حصوله على المعرفة . والمعرفة التي تتأتى بالإرغام لا تبقى في العقل .

نظام التعليم عند أفلاطون :

تصور أفلاطون نظاماً للتعليم قسمه إلى المراحل التالية :

١ - **مرحلة الحضانة :** يتمشى تصور أفلاطون لمرحلة الحضانة مع فكرته عن شيوع الملكية وتملك الدولة لكل شيئ بما في ذلك الأفراد . ولذلك رأى أن مرحلة الحضانة تبدأ منذ ولادة الطفل حتى سن السادسة . وفي السنوات الثلاث الأولى منها يكون الاهتمام بتغذية الطفل ورعايته وتعريفه بمقدار ببعض المشاعر كالسرور والألم . ويجب البعد عن تخويفه . أما السنوات الثلاث الأخيرة فهي أهم فترات التعليم في حياة الطفل . وما يجب أن يتعلمه الطفل في هذه المرحلة هو اللعب والتسلية والاستماع إلى القصص الخيالية وقصص الآلهة . ويجوز في نظر أفلاطون عقاب الطفل في هذه المرحلة .

٢ - **المرحلة الأولية :** تبدأ من السادسة حتى سن الثالثة عشر . ويتعلم الأطفال فيها في المدرسة الأولية .ويعيشون في المساكن الداخلية التي تعدها الدولة مع فصل الأولاد عن البنات . وفي هذه المرحلة يدرس الأطفال الدين والأخلاق والموسيقى والرياضيات . ويمارسون ا للعب والرياضة ومبادئ للتدريب العسكري وركوب الخيل . وقد عدل أفلاطون عن رأيه الأول في تدريس القراءة والكتابة فذكر في كتاب القوانين أنه يجب تأخير تعلمها حتى سن العاشرة ويستمر في دراستها حتى آخر المرحلة .

٣ - **المرحلة المتوسطة والثانوية :** تمتد من سن الثالثة عشرة حتى سن العشرين. تخصص الثلاث سنوات الأولى منها (من ١٣ - ١٦) لمراصلة دراسة مواد المرحلة الأولى إلى جانب تعليم العزف على القيثارة التي أصر أفلاطون على أن يتعلمها التلميذ طيلة ثلاث سنوات سواء رضي أم كره . والفترة من سن ١٦ - ١٨ تخصص للممارسة العنيفة للألعاب الرياضية

والتدريب العسكري . أما الفترة من ١٨ - ٢٠ فيركز فيها على التدريب العسكري ولا تدرس فيها أي مواد عقلية .

٤ - **المرحلة العالية** : يختار لها الصالحون من البنين والبنات في سن العشرين لإعدادهم ليكونوا فلاسفة وحكاما . ومدة الدراسة في هذه المرحلة عشر سنوات . تخصص للدراسات العلمية التي حددها أفلاطون بالحساب والهندسة والفلك والموسيقى دراسة علمية منظمة . وهذه المواد الأربعة هي التي كونت الرباعية التعليمية في الفنون الحرة التي اتخذت أساس المنهج المدرسي طيلة العصور الوسطى . وامتد تأثيرها على المنهج حتى العصور الحديثة .

الدراسات العليا : يوجه الشباب بعد سن الثلاثين حتى الخامسة والثلاثين لدراسة الجدل والفلسفة ودراسة نظرية الأخلاق وعلم النفس ونظم الحكم والقوانين . ومن سن ٣٥ إلى ٥٠ يقوم الشباب بخدمة الدولة في مرافقها المختلفة . ويوضعون موضع الاختبار . وعند سن الخمسين يعفى هؤلاء الموظفون من الأعمال الرسمية ويوجه اهتمامهم لدراسة الفلسفة ونظام الحكم .

أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) :

مقدمة : كان والده نيكوماخوس طبيبا شهيرا . ولقد افتتح أرسطو مثل معلمه مدرسة " الليسيه " . وقد ظلت حتى ٥٢٩ م . عندما أغلقها الإمبراطور جستنيان مع غيرها كمدرسة من المدارس الوثنية .

أعمال أرسطو :

اكتشفت أعمال أرسطو في القرن الثاني عشر الميلادي . وكان للعرب الفضل الكبير في ذلك . فقد كانت هناك شروح الفلاسفة العرب له من أمثال إبن سينا وإبن رشد لاسيما آراؤه ذات الأهمية الحيوية للعقيدة المسيحية وإن اختلفت أو تعارضت مع آراء الكنيسة . وقد شجب أسقف باريس سنة ١٢٧٠م تفسير ابن رشد لأرسطو . وعندما اكتشفت الأعمال الأصلية لأرسطو بعد سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين عام ١٢٠٤ م أصبح من السهل مصالحة آراء الكنيسة . وبعد مراجعة الكنيسة لأعمال أرسطو وموافقة جامعة باريس عليها

أصبحت محور الفنون الحرة في الجامعات لمدة تزيد على ثلاثة قرون .وكان لتوماس الأكويني فضل كبير في تطويع آراء أرسطو للكنيسة .

وكان لموافقة الكنيسة المسيحية على أعمال أرسطو أن أصبحت الآراء الأرسطية صاحبة السلطان على الفكر الغربي . وأصبحت الكلمة المكتوبة لأرسطو - كما يفسرها رجال الدين المسيحي لاسيما في مجال التفكير والنظام الطبيعي لها - لها نفس السلطان مثل كلمة الرب المكتوبة بالنسبة للعقيدة كما يقول بعض المؤرخين . ولكن مع هذا كان هناك من رجال الدين المسيحي من فضل آراء أفلاطون على أرسطو بالنسبة للمسيحية . ومع ذلك فقد أحب هؤلاء فكرة أرسطو عن " المحرك الثابت " . وهي قوة خارج الطبيعة وضعت كل شيئ في حركته الأبدية . وذلك لأن هذه الفكرة راقت لهم في تصورهم للرب .

أرسطو وعلماء المسلمين :

كان لأرسطو مكانة كبيرة عند كثير من علماء المسلمين وفلاسفتهم لدرجة أنهم لقبوه بالمعلم الأول . منهم ابن الهيثم الذي كان مفتونا مسحورا بأرسطو وقد أشرنا إلى كلام له في هذا الصدد في مكان آخر من هذا الكتاب .ومنهم أبونصر الفارابي المتوفي عام ٣٣٩ هـ ٩٥٠ م الذي يلقب بالمعلم الثاني والذي يقول عن أفلاطون وأرسطو بأنهما كانا الحكيمين المبدعين للفلسفة والمنشئين لأوائلها والمتممين لأواخرها . ومنهم أبو الحسن محمد بن يوسف العامري (توفي عام ٣٨١ هـ) الذي يفيض كتابه "السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " بالنقل عن أفلاطون وأرسطو . ومنهم أبو على ابن سينا (المتوفي ٤٢٨ هـ).وفي كتابه " الشفاء " يبدو أكثر اعترافا بعظمة أرسطو من الفارابي. أما ابن رشد (توفي ٥٩٥ هـ) فيفوق ابن سينا في تعظيمه لأرسطو ويضعه في مكانة لا نظير لها .

الإنسان مدني بالطبع :

ينقل أبو الحسن العامري عن أرسطو قوله بأن الإنسان مدني بالطبع فيقول (ص ٢٥٧) :

« وقال أرسطو ليس الانبعاث إلى الشركة المدنية ضروي بالطبع . ولذلك نقول بأن الإنسان حي ومدني بالطبع . . وليس في إمكان الواحد وفاء القيام بتثبيت جميع ما يحتاج إليه بنفسه فاحتاج إلى معاونين فكان الاجتماع والمدن

لذلك » . وهذا الكلام يذكرنا بكلام مشابه ذكره ابن خلدون في مقدمته في كلامه عن العمران البشري (ص ٤١) فيقول :

« . . الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء (لعله يقصد أرسطو) عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران » .

كان من عادة أرسطو أن يمشي في المدرسة وحوله تلاميذه يسيرون معه ويلقي عليهم دروسه .ولذا سمي أتباعه " بالمشائين " . ويقال إن دورسه كانت تلقى في فترتين : صباحية للتلاميذ وتدور حول الفلسفة ومسائية عامة تدور حول الخطابة .

أرسطو ومكتبة الإسكندرية : هناك مبرر معقول للاعتقاد بأن متحف ومكتبة الإسكندرية ذاتها قد أنشئتا على النمط الأرسطي . وكانت الدراسات النباتية والحيوية والرياضية والفلكية بالإسكندرية مثالا للاهتمامات وطرق البحث التي سبق إليها أرسطو . وقد جمع الإسكندر الأكبر لمكتبة الإسكندرية كل مؤلفات أرسطو من البلاد التي فتحها بجيشه الجرار كما أشرنا .

أرسطو والعلم : لم يترك أرسطو فرعاً من فروع العلم إلا كتب فيه وعلى مستوى عال . ويشمل ذلك النقد الأدبي والشعر Poetics. ولا غرو أن أطلق الناس في أواخر العصور الوسطى على أرسطو لقب الأستاذ Magister (المعلم الأول) والحكم في الشئون الثقافية . ولقد أشار إليه سانت توماس بكلمة واحدة إذ سماه Philosophus أي الفيلسوف .

أرسطو وتاريخ التربية : يرد ذكر أرسطو لأسباب كثيرة في تاريخ التربية وذلك لاهتمامه بالمنطق ومجالات الفلسفة الأخرى والعلم التجريبي Emperical والبلاغة والنقد الأدبي وفلسفته الاجتماعية السياسية المتشددة في المحافظة . إلا أن إسهام أرسطو في التربية يمكن أن يتحدد في ناحيتين هامتين إحداهما تختص بطبيعة المعرفة ووسائل اكتسابها . والأخرى تهتم بالمجتمع وعلم السياسة . وكتابات أرسطو في هذه الموضوعات خليط عجيب من الفكر المبدع والآراء المدهشة حول تأملات الآخرين . وقد يهم الطالب أن يقرأ ضمن كتابات أرسطو في الناحية الأولى كتاب الميتافيزيقا Mataphysics وكتاب The Poterior Anaggtics

وكتاب التصنيفات Categories . وتوجد في هذه الكتب الثلاثة آراء أرسطو في طبيعة الواقع ، والعلاقات بين الأشياء وإحداث وإمكانيات المعرفة . ولكي نعرف ما إعتقد أرسطو بوجوده فإن المرء يرجع إلى كتبه : عن الطبيعة Physies وعن السموات On The Heavens وعن الروح On The Soul وهو كتاب في علم النفس .

أرسطو والبلاغة والشعر : كانت كتابات أرسطو في البلاغة والشعر إرتيادا لعالم المعرفة بطريقة خاصة . فالشعر محاولة لوضع معايير للحكم الأدبي والدرامي . وتلخص أفكار أرسطو في البلاغة أعمال أفلاطون عن الجدل ، وكذلك أعمال السفسطائيين البلاغيين . وربما تكون أفكار أرسطو في النقد الأدبي والمنطق من بنات أفكاره الأصلية حتى تلك التي لم تنسب إليه فقد استمر كتابه عن الشعر عملا قياسيا حتى يومنا هذا يلتزم به النقاد الأدبيون دون مناقشة بصفة عامة . وقد استمر أثر المنطق الأرسطي سائدا حتى وقت قريب عندما بدأ الفلاسفة في اتباع أساليب المنطق الحديث .

أرسطو والأخلاق والسياسة : كتب أرسطو باستفاضة في موضوعات الأخلاق والسياسة . وأخرج لنا كتاب الأخلاق لنيكوماخوس Nicomachean Ethies والسياسة Politics. وفي نظر بعض المؤرخين لايمكن أن يغفل أي منهج في موضوع الأخلاق في كلية معاصرة تخصيص وقت كاف لكتاب الأخلاق Ethics لأرسطو . كما لايمكن أن يحذف من منهج في النظرية السياسية كتاب السياسة Politics ولقد رغب التحرريون Liberals في أن ينضم أرسطو مع ديمقراطيس وبروتاجوراس والسفسطائيين ضد أفلاطون. إلا أنه لم يفعل لأن أرسطو كان محافظا مثل أستاذه يلتزم بعقيدة تقول بأن المجتمع يجب أن يكون هرمي التركيب . وبحكم دكتاتوريا ولكن ليس حكما ظالما . ويقرر كتاب الأخلاق أن بعض الناس ولدوا عبيدا وآخرين مصيرون للحكم لأنهم سادة .

أرسطو والرق والمرأة : كان أرسطو يعتقد أن الرق نظام مشروع فكما أن الصواب أن يحكم العقل الجسم فكذلك من الصواب أن يحكم المتفوقون في الذكاء من لايتفوقون إلا في الجسم . ويرى أرسطو أن النساء يجب أن يخضعن لإرادة الرجال تماما . وقال إن الصمت زينة طبيعية للمرأة ، وأن إعطاء الحرية للمرأة كما كان الحال في إسبرطة يهدد الدولة ويدمرها ، وأن المكان الطبيعي

لنشاط المرأة وعملها هو المنزل ، وأن حق الزوج الطبيعي أن يمارس السلطة الكاملة على زوجته وأولاده . ولما كانت النساء تفتقر إلى بعد النظر فإنهن غير مهيئات لأن يصبحن حكاما . وقد سلم أرسطو بأن النساء غير قادرات على النشاط العقلي إلا في أبسط صورة . ولذا أخضعهن لسيطرة الرجل . كما رأى أن يكون تدريبهن مقصورا على الأشياء التي تتفق مع طبائعن وجنسهن فيعلمن طاعة الرجل وأداء التوجيهات المنزلية .

أرسطو والآراء الأسبرطية : لقد أخذ أرسطو بالآراء الأسبرطية في التربية ومنها سيطرة الدولة على التربية . فمن الواجب تشكيل الناس وفقا لرغبة الدولة. ولابد أن مثل هذه الأفكار تسر الحكام المستبدين .

أرسطو وطبيعة الإنسان : ذهب أرسطو إلى القول بأن الإنسان مكون من صورة هي النفس ومادة هي البدن . كما قال بأن للإنسان طبيعة نباتية لأنه ينمو وينتج ويتهاوى ويموت مثل النبات . كما أن له طبيعة حيوانية لأن له رغبات وإحساسات وحركات نشيطة كالحيوان . ولكن بالإضافة إلى ذلك للإنسان عقل يتميز به عن الحيوان . وقد ردد أرسطو كثيرا عبارة " الإنسان حيوان عاقل " . واهتم مثل أستاذه أفلاطون بالفضائل العقلية كأعلى قيم للسلوك الإنساني . ومن هنا كان الاهتمام فيما بعد أرسطو بالجانب العقلي في التربية واعتباره أهم هذه الجوانب .

أرسطو والحواس :

كان أرسطو طبيبا أو " حكيما " وعالما طبيعيا وكان ينظر إلى الحواس على أنها مصادر حقيقية وصادقة للمعرفة واكتسابها .

أرسطو ومجانبة الصواب : يرى بعض المؤرخين أن أرسطو جانب الصواب في بعض الأحيان . ذلك أنه رفض على سبيل المثال أى تفسير آلي للحوادث الطبيعية أو حركة الأرض . كما أنه جعل القلب وليس " المخ " مركز الجهاز العصبي . كما أنه ذهب إيضا إلى القول بأن الأرض هي مركز الكون .

أرسطو والتفكير : ذهب أرسطو أيضا إلى التسليم بمبدأ سيكولوجي يقول إن التفكير عملية نشطة لاتفنى هي قمة الحياة العقلية وتعمل مستقلة عن الجسم.

وقد ساعد هذا التصور الأرسطي لعملية التفكير على تخليد الفكرة الثنائية لطبيعة الإنسان (العقل والجسم) . كما ساعد على إنصراف اهتمام التربية إلى العناية بالنواحي العقلية البحتة . وقد اعتقد أرسطو بأن الهدف من التربية هو تنمية العقل والتفكير من خلال دراسة العلوم والفلسفة .

وهكذا اعتبر أرسطو العقلانية أعلى صفة في الإنسان ، واعتبر أن الهدف من التعليم هو توجيه الفرد لكي يحيا حياة منطقية يوجه الفرد فيها سلوكه عن طريق العقل .

تربية الجسم والوجدان والعقل : اهتم أرسطو بالتربية الجسمية والخلقية في المرحلة الأولى من التعليم . وتربية الوجدان عن طريق الموسيقى والرسم في المرحلة المتوسطة ، وتربية العقل والتفكير في المرحلة العالية .

أرسطو والمنزل : اعتبر أرسطو المنزل مركزا تربويا هاما يقوم بتربية الأطفال تحت توجيه الدولة على عكس أفلاطون الذي نادى بإلغاء دور المنزل وملكية الدولة للأطفال . كما نظر أرسطو إلى الدولة على أن وظيفتها توجيه المجتمع بصورة يتحقق معها أعظم خير للبشرية .

الفصل السادس

التربية الرومانية

مقدمة :

نمت روما من مجتمع صغير يعيش على الزراعة إلى شعب إيطالى ثم إلى إمبراطورية كبرى كانت تضم على حد تقدير المؤرخين مائه مليون شخص . وتمتد على الجزء الكبير من الشرق الأوسط وبعض أمريكا وكل أوربا بإستثناء ألمانيا . وقد تطور نظام الحكم فى روما من نظام ملكى (٧٥٤ - ٥٠٩ ق.م) إلى نظام جمهورى (٥٠٩-٢٧ ق.م.) ثم إلى ملكى أوتوقراطى (٢٧ق.م. - ٤٧٦م) . وكانت الإمتيازات السياسية العليا والمناصب الكبرى مقصورة على النبلاء والأرستقراطيين بحكم المولد والثروة .

وفى الفترة بين ٣٠٠ - ١٤٦ق.م. ونتيجة للحروب الإيطالية المقدونية أصبحت روما قوى كبرى . وفرضت الثقافة اليونانية كنتيجة للإحتكاك والإتصال والغزو . ومنذ سنة ٢٠٠ ميلادية أخذت قوة روما ومكانتها فى التدهور لأسباب سياسية واقتصادية ودينية . وكانت الإمبراطورية الرومانية نقطة إنصهار للشعوب والثقافات . ويعتبر التاريخ الرومانى إمتداداً للتاريخ اليونانى . ولكن طابع الشعبين مختلف . فاليونانيون كانوا مفكرين بينما كان الرومانيون عمليين نفعيين . وكان الفن والأدب الرومانى ذا طابع عملى مثله مثل باقى أمورهم . وكان الرومانيون فى كل المجالات الأدبية والمعرفية تقريبا مقلدين لا مبتكرين . وإذا كان اليونانيون عرفوا كيف يفكرون عن العالم فإن الرومان عرفوا كيف يحكمون هذا العالم . فقد كان لهم قصب السبق فى مجال الحكومة والإدارة والتنظيم . والقانون الرومانى يعتبر من أعظم الإنجازات البشرية ومازال هذا القانون يحيا فى قوانينا المعاصرة .

وقد بلغت الإمبراطورية الرومانية قمة عظمتها فى القرنين الأول والثاني الميلادى . ومنذ القرن الثالث بدأ الضعف يدب في أوصالها . وإنتهى الأمر بإنقسام الإمبراطورية فى القرن الرابع إلى جزئين : الأول هو الإمبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية التى شيدها قسطنطين فى نفس موقع بيزنطة القديمة . والجزء الثانى هو الإمبراطورية الغربية وعاصمتها روما .

تطور التربية الرومانية :

مرت التربية الرومانية فى تطورها بأربعة مراحل هى :

١ - الفترة القديمة : وهى تمتد حتى ٢٥٠ ق.م. وهى فترة الثقافة الوطنية وإن كانت غامضة الأصل . وكانت التربية مسئولية الأم فى السنوات السبع الأولى . وبعدها يقوم الأب بتعليم إبنه من خلال مرافقته له . وعند سن السادسة عشرة يقام إحتفال خاص يدشن بموجبه لتحمل مسئولياته الإجتماعية فى الإنتماء بوحدة فى الجيش .

٢ - فترة التحول : وعندها إنتقلت الأفكار والثقافة اليونانية بل والمثل والممارسات التربوية اليونانية . وأصبحت هذه الأفكار والممارسات شائعة على الرغم من معارضة المحافظين . وتنتهى هذه الفترة فى عام ٥٥ ق.م.

٣ - الفترة الهلينية الرومانية : وتمتد حتى سنة ٢٠٠ ميلادية . وهى الفترة التى حدث خلالها نمو كبير فى المؤسسات التربوية والممارسات التربوية أيضا . وهى وإن كانت يونانية فى شكلها فهى لم تكن كلها كذلك فى روحها .

٤ - فترة الإنهيار : وهى الفترة التى تنتهى عام ٥٢٩ م ميلادية عندما أغلق الإمبراطور جستنيان المعاهد والمدارس الوثنية فى أثينا وجامعتها وانتشرت المدارس المسيحية .

اتجاهات التربية الرومانية :

لا يعرف الكثيرعن التعليم المدرسى الرومانى فى العصر القديم الأول . بيد أن التعليم كان بصورة عامة يتم عن طريق الأسرة فهى تقوم بتعليم أبنائها فى منزلها . وكان التدريب العملى والحرفى من جانبها أيضا . وكانت الأم تتولى تعليم بناتها على شئون المنزل وإدارته . ولا توجد أدلة مؤكدة على وجود مدارس نظامية فى هذه الفترة وإن كان بعض كتاب الرومانيين يشيرون إلى وجود مدارس نظامية إبتدائية هى اللودوس .

وهكذا كان الصغار يتعلمون فى هذه الفترة من خلال تقليدهم ومحاكاتهم لآبائهم . وعندما ظهرت قوانين الجداول الإثنا عشر كان على الأطفال أن يتعلموها بالحفظ . وقد كتبت هذه القوانين سنة ٤٤٩ ق.م. نتيجة لنمو

الديمقراطية . وكانت تضم القوانين التى تنظم شئون الحياة الإجتماعية من أسرية وزواج وتجارة ومعاملات . واستعارت روما أبجديتها من اليونان . وإنتشرت المعرفة فى روما بفضل اليونان . وكانت أهداف التربية خلال الفترة القديمة تهدف إلى إعداد الفرد للواجبات المتعددة من قانونية وزراعية وعسكرية وإقتصادية وإجتماعية وسياسية عن طريق التقليد والممارسة فى المحاكم أو المزارع أو الجيش. ولعل أحسن ما توصف به التربية الرومانية أنها كانت تربية نفعية تستخدم لسد إحتياجات الدولة .

أما فى فترة التحول فكان الهدف الرئيسى للتربية هو إعداد الخطباء والفصحاء الكاملين . وكان الرومان ينظرون إلى الخطيب على أنه الرجل المتعلم كاملا ويمتلك جماع المعرفة والمهارات الخاصة بالفيلسوف والمحامى ورجل الدولة والجندى والمؤلف وهكذا .

وكانت كل الوظائف فى الدولة مفتوحة أمام الخطيب فى السلم والحرب على السواء . وقد حدد الرومان الخطيب بأنه الشخص الحسن الماهر فى الكلام . وكان تعليم الأولاد فى المدرسة الأولية أو الثانوية أو العالية موجها نحو غرض إعداد الخطباء . وقد إهتم الرومان بتعليم البنات مثل الأولاد تماما . وهم فى هذا يخالفون اليونان . فكانت الأم الرومانية تعلم أطفالها حسن الحديث والكلام . وتعنى بصحتهم كما كانت تعلمهم أحيانا القراءة والكتابة والحساب . وهذا يعنى أن بعض الأمهات كن متعلمات . وكانت الأمهات يعلمن بناتهن أصول الطهى والغزل والخياطة وإدارة المنزل والإشراف على أعمالهن . وكانت تربية البنت تنتهى بزواجها . وكان يسمح بزواج البنت عند الرومان فى سن الثانية عشرة . وكانت الأم تعلم أولادها الفضائل التي أحبها الرومان ومنها حب الوطن والدولة.

وفى فترة التحول تغير أسلوب التربية الذي كان يعتمد على التقليد والمحاكاة إلى أسلوب التعليم المنتظم فى المدارس . وهى مدارس الأدب والنحو والخطابة . وأصبح التعليم نظاميا رسميا له قوالبه الثابتة القاسية المعتمدة على الحفظ والتقليد مصحوبة باستخدام العقاب البدنى القاسى . وقد كان استخدام الجلد شائعا . وهاجمه كونتيليان وهو أحد المنظرين الرومانيين وإعتبره وسيلة غير مرغوبة . وطالب بأن تكون الدروس مصدراً للسرور . وعلى المعلم أن يجعل دروسه مشوقة . وبعض المعلمين الرومان فى مدارس النحو والخطابة كانوا بالفعل

يستخدمون وسائل أخرى محببة كجعل التعليم مناسبا لسن التلميذ وقدرته ومنح الجوائز واستثارة الحماس والتنافس بين التلاميذ والتكرار والتسميع وغيرها . كما طالب كونتيليان بحسن إختيار المعلمين حسب مؤهلاتهم . واعتبر كونتيليان أن سن الثالثة أو الرابعة هى سن مناسبة لبداية التعليم .

ولما كنت التربية فى بلاد اليونان مقصورة على الطبقات الممتازة الغنية كذلك كانت التربية الرومانية . وفى أيام الجمهورية من القرن الخامس حتى القرن الأول قبل الميلاد أصبح التعليم ممكنا لعدد أكبر نسبيا من أبناء الرومان . وذلك مع إتساع قاعدة الحياة الإقتصادية والسياسية فى تلك الفترة . ولكن عندما ضاقت هذه القاعدة فى الأيام الأخيرة للإمبراطورية أصبح التعليم مقصورا على الطبقات الأرستقراطية على الرغم من أن بعض الأباطرة كانوا يظهرون إهتمامهم بالتعليم كإعطاء المنح للفقراء من الطلاب أو إعانة بعض المعلمين أو ضمان الحرية الأكاديمية لهم . ومع هذا فقد كان هذا الإهتمام فرديا وشخصيا من جانب الأباطرة يختلف من فترة لأخرى . ولم يترتب عليه تعليم أبناء الطبقات الفقيرة. بل إن الكنيسة عندما أخذت على عاتقها مسئوليتها التربوية لم تغير من الشكل الأستقراطى للتعليم ، فقد كان هدفها الأساسى إعداد قادة الكنيسة ورجالها . وكان هؤلاء عادة من أبناء الطبقات المختارة . ورغم أن الكنيسة كانت تنادى بدين واحد وكنيسة واحدة إلا أنها لم تبشر مطلقا بتعليم واحد للجميع .

الفنون السبعة الحرة :

يهمنا ونحن بصدد الكلام عن التربية الرومانية أن نتعرض للفنون السبعة الحرة . وهذه الفنون الحرة قد بدأت فى اليونان . وعرفها أرسطو بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية بل يسعون وراء التفوق العقلى والخلقى . وتطورت فنونها وعلومها على يد السفسطائيين وإستقرت وتبلورت فى عصر الرومان . ويرجع الفضل إلى فارو Varro فى القرن الأول قبل الميلاد بتحديد الفنون الحرة بتسعة علوم أو فنون من الدراسات اليونانية .

واعتبر هذه الفنون أساسية لتربية الإنسان الحر. وكانت تضم النحو والخطابة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى وهندسة البناء والطب . وقد أسقط

من حسابه الجمباز والرسم وكانا ضمن الدراسات اليونانية . وأضاف هندسة البناء والطب ولم يكونا موجودين ضمن المنهج اليونانى . ويقال إنه حاول بإختياره لهذه الفنون أن ينقل إلى التربية اللاتينية الرومانية ألوان المعرفة التى تفوق فيها اليونان على الرومان . وقد اختصرت هذه الفنون السبعة فيما بعد . (Butts : P . 100) . ولم يكن لعبارة أثر السحر على دراسى تاريخ التربية مثلما كان لعبارة الفنون السبعة الحرة . ذلك أنها شكلت المنهج المدرسى فى أوربا لمدة تزيد على الألف عام . وقبل ظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر والثالث عشر كان محتوى التعليم ومنهجه يشكل من هذه الفنون الحرة . وبعدها تأتى الدراسة المهنية فى القانون والطب واللاهوت . وقد إمتد تأثير الفنون الحرة إلى العصور الحديثة وشمل الشرق والغرب علي السواء .

وهناك إختلاف بين مؤرخى التربية حول من صاحب الفضل فى تحديد هذه الفنون بسبعة . ولكن الرأى الأرجح هو ما يذكره مؤرخ التربية المعروف " باطس " إذ يذكر أن الفضل فى تحديد الفنون الحرة بسبعة يرجع إلى كابلا Capella وقد إختصر كابلا فى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد الفنون الحرة من تسع مواد إلى سبع (Butts : P.101) . وفى إحدى كتبه عن زواج علم اللغة والإله ميركورى The Marriage of Philolgy and Mercuery يصف كابلا عرسا سماويا تكون فيه الفنون السبعة الحرة على هيئة سبع عذارى يلازمن العروس ليلة زفافها . وتقوم كل واحدة منهن بالحديث عن نفسها . وقد حدد كابلا الفنون السبعة الحرة بأنها النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقي . وقد أراد كابلا بهذا المنهج أن تكون مواده مناسبة وملائمة للكائنات السماوية الروحية . ولذا لم يضم الطب إلى المنهج لأن هذه الكائنات السماوية ليست لديها أمراض أرضية ، كما أنه ترك هندسة البناء لأن هذه الكائنات لا تحتاج إلى مساكن مادية ، وهكذا كان إهتمام كابلا بالأمور الروحية والفكرية أكر من إهتمامه بالنواحى المادية على الرغم من أن كابلا نفسه لم يكن مسيحيا . وربما يفسر تاريخيا سر شهرة الدراسات الحرة أو التربية الحرة بأنها تشمل على الدراسات الفكرية وأنها عكس التربية العملية أو النافعة . ويرى بروبيكر أن كاسيدوراس هو الذى حدد هذه الفنون السبعة (Brubacher : P.475) ويوافقه فى نفس الرأى آخرون (روبرت بك : ص ٤٨) . وقد كان فضل كاسيودوراس فى القرن السادس

الميلادى أنه عمل على تقبل الكنيسة للفنون الحرة عندما قارن بينهما وبين العمد السبعة للحكمة فى التربية المسيحية . فإذا كان للحكمة سبعة أعمدة فإن الفنون الحرة السبعة تقابل هذه الأعمدة .

وقد إنقسمت الفنون السبعة الحرة إلى جزءين سمى الرومان إحداهما الرباعية التعليمية Quadrivium وتتكون من الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكانت هذه الفنون تشكل منهج المدرسة الإبتدائية . أما الجزء الثانى فهو الثلاثية التعليمية Trivium . وتتكون من النحو والخطابة والمنطق وكانت تشكل منهج المدرسة الثانوية . وكانت التربية البدنية ضمن المنهج كأمر مسلم به . لذلك لم تذكر صراحة وكانت الرباعية والثلاثية للفنون السبعة الحرة أساس المنهج التربوى الأوربى لمدة تزيد على ألف سنة تالية كما أشرنا .

اللاتينية واليونانية :

كان السواد الأعظم من الطائفة المتعلمة من الرومان فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد يتكلم لغتين اللاتينية واليونانية . لأنهم شعروا أن لغتهم القومية اللاتينية ليست بالقدر الكافي الذى يمكنهم من أن يكونوا متحضرين حقا . ولكن هل يعنى ذلك أن ينسى المواطن الرومانى ماضى الرومان الوطنى ويتقبل بحماس التراث الثقافى اليونانى ؟

فى غضون الفترة التى ظهر بها شيشرون كان المربون الرومان فى حيرة من الأمر . فمن ناحية كانوا يرون ضرورة الإعتماد القوى على التراث اليونانى والأدبى . ومن ناحية أخرى كانت السياسة العامة غالبا مما تضطرهم إلى هجر ذلك تماما ونبذ كل ما ينعدم فيه الشخصية اللاتينية الأصلية من المدارس . ومن المعروف من مصادر متنوعة رسمية مناوءة المدارس للثقافة اليونانية وبالأخص نفورها من دراسة الخطابة اليونانية . ومن وقت لآخر كانت تسن القوانين التى تغلق بموجبها مدارس الخطابة والفلسفة اليونانية فى روما أو يطرد جميع المدرسين اليونانيين من هناك . ومما لا شك فيه أن مثل هذه القوانين كانت قلما تنفذ أو يسرى مفعولها .

وكانت مهمة واضع النظرية التربوية الرومانية صعبة . لأنه لم يكن بإستطاعته تجاهل غلبة الثقافة اليونانية . ولو كان مجرى التاريخ السياسى

الرومانى مختلفا لكان من الممكن للمارسات التربوية الرومانية أن تأخذ إتجاهاتها النظرية من اليونانية والهلينستية . وكان المطلوب من نظرية التربية الرومانية أن تشق طريقها بنفسها وأن تغلف بعناية ما كان يونانيا فى أصله . وذلك حتى نظهر أصول التربية الرومانية كنتاج للحياة القومية للرومان .

ومع أن الرومان كانوا ينظرون إلى اليونانيين على أنهم أقل منهم سياسيا ومعنويا فإنهم لم ينكروا تفوقهم عليهم فى الأدب والفلسفة والفن . ولذلك كان ينظر المثقفون الرومان إلى اللغة اليونانية والأدب اليونانى نظرة تقدير وإحترام أكثر منها نحو اللغة اللاتينية والأدب اللاتينى . وكونتيليان نفسه نادى فى نهاية القرن الأول الميلادى بأن التعليم الدراسى للأولاد الرومانيين يجب أن يبدأ بدراسة اليونانية . وبعدها يجب أن يتساوى الإهتمام باللاتينية واليونانية فيما بعد هذه المرحلة الأولى . والواقع أنه عندما كتب كونتليان هذا كانت دراسة اليونانية وحدها ممارسة شائعة فى المدارس . وقد ترتب على ذلك نتيجة ذات مغزى ثقافى وتربوى هام هو أن اللغة اليونانية كانت وسيلة الإتصال للأفراد المتعلمين فى الإمبراطورية الرومانية . وفى فترات حكم بعض الأباطرة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين أعتبرت اللغة اللاتينية رسميا لغة الإمبراطورية . وبعد سقوط إمبراطورية الروم الغربية إزدهرت اليونانية فى الشرق . واستمرت اللغة اللاتينية محتفظة بمكانتها فى الحياة الثقافية فى الغرب . والغريب أن الأفكار التى كانت تحملها اللغة اللاتينية والأدب اللاتينى كان يونانيا أكثر منه رومانيا . ولم تكن اللغة اللاتينية فى يوم ما لغة الأفراد العاديين فى روما وإنما كانت لاتينية مهجنة .

شيشرون وآراؤه التربوية (١٤٠ - ٤٣ ق٠م٠) :

كان شيشرون ابن فارس رومانى تلقى تعليما عاليا فى الخطابة اليونانية . كما تثقف ثقافة جيدة فى القانون . وقد عمل بالجيش عندما بلغ السابعة عشرة من عمره . وأصبح محاميا عندما بلغ الخامسة والعشرين . ولكن صحته المعتلة إضطرته إلى أن يستقيل من عمله لمدة عامين . وفى خلال هذه الفترة درس الفلسفة فى "رودس" و "أثينا" ثم رجع إلى روما ليستأنف وظيفته القانونية . وأصبح شيشرون من أعظم الخطباء الرومان وواحدا من الكتاب البارزين فى العصر الذهبى للأدب الرومانى . وإمتد تأثيره لقرون تالية .

وكان لشيشرون تأثير كبير على التربية الرومانية أكثر من أى رجل آخر آنذاك . لقد كان شيشرون خطيب روما والقائد ورجل الدولة السياسى . وكان مهتما بالكتابة عن التربية وتصحيح وتنقيح ما سبق أن كتبه عنها فى صباه والذى سماه ملاحظات تلميذ De Inventione . ونجد أن شيشرون فى كتابه الخطيب يجمع بين دوافع مختلفة بعضها شخصية وعملية وبعضها الآخر متأثر بالمذهب المثالى . ولقد تجاهل شيشرون سنوات الطفل الأولى وعالج كيفية تدريس التلميذ عندما يكون مستعداً لدراسة الخطابة والآداب . وأراد شيشرون أن يعبر عن ولائه للتعليم الرومانى التقليدى لأن التعليم الإبتدائى هو مسئولية الوالدين .

وتناول كتاب الخطيب المبادىء الأساسية لتعلم البلاغة والخطابة . وهو مرشد لتكوين الرجل ذى الثقافة العالية الواسعة . وحسب خطة شيشرون فإن الولد يبدأ دراسته الجادة بعد المدرسة الإبتدائية بالفنون الإنسانية والأدب والخطابة والفلسفة والحساب والموسيقى وعلم الفلك وعلم الهندسة . وهذه القائمة التى بينها شيشرون تذكرنا بالفنون السبعة الحرة . وفى الحقيقة أن شمول التربية عند شيشرون لهذه الفنون لا ضير فيه ولكن توقيت تعليم هذه الفنون هو موضع الإنتقاد من المؤرخين .

وبالنسبة لشيشرون فإن نتاج التربية الجيدة هو الخطيب الحقيقى أى الرجل القادر علي التفكير والكلام والتصرف بطريقة تستحق الثناء والمدح . ولكى يصبح ذلك الرجل خطيبا حقا فإنه يحتاج إلى إعداد جيد . وذلك من أصعب أنواع التعليم . لأن الخطيب يحب الكلام ويعرف كيفية إستخدام صوته وأنفاسه ولسانه بل وجميع جسده . وكذلك يجب أن تتحسن ذاكرته بالتمرين . إن من يتوقع أن يكون خطيبا لن تقتصر موهبته على الكلام فقط . ولكن يجب أن يؤكد كلامه بالأمثلة والتوضحيات التى يجب أن تكون جاهزة دائما للإستعمال . إن تصورات شيشرون فى دراسته لخطيب المستقبل عديدة وكثيرة التفاصيل . ويرى شيشرون أن الخطيب لا يستطيع أن يستحوذ على الإعجاب ما لم يكن ملما بجميع الفنون الإنسانية .

لقد وضع شيشرون برنامجا عريضا واسعا لإعداد الخطيب واعتقد بأن أحدا لا يأمل أن يكون خطيبا بكل معنى الكلمة إذا لم يكتسب المعرفة من جميع العلوم

ومن جميع المشاكل الكبيرة فى الحياة . فعلى الخطيب إلى جانب تمكنه من الفصاحة أن يدرس علم الأخلاق وعلم النفس والتاريخ والقانون والحرب والبحرية والطب والعلوم الطبيعية .

وقد نشر كتابه "الخطيب " De Orator في عام ٥٥ ق.م. وهو يتضمن المبادئ الأساسية التى شعر شيشرون بأنها ضرورية للخطيب . وفرق شيشرون بين التدريب الفنى والتربية أو الثقافة العامة .لكنه أصر على أن الخطيب بحاجة إلى الثقافة العامة الواسعة كأساس للتعليم العالى لمهنة الخطابة . وهذه الثقافة العامة إعتبرت أيضا ضرورية للنجاح فى الحياة المهنية أو الحياة العامة . ويقول شيشرون إن الخطيب المثقف هو أيضا فيلسوف فلقد إعتبر شيشرون أن الفلسفة هى التى تعطى الخطابة جوهر الكلام .

وكان للتاريخ قيمة خاصة عند شيشرون كما هو هند باقى الرومان . واحتل مكانا يدعو إلى الإعجاب فى المدارس الرومانية . ولكنه لم يكن يدرس أبدا كمادة مستقلة وإنما كان يدرس ملحقا بالأدب . وعمل شيشرون على تغيير تدريس التاريخ ولكن بدون فصله عن الأدب تماما . وأعطى للتاريخ والأدب التوجيه القومى . إذ كان شيشرون يؤيد دراسة التاريخ وخاصة التاريخ القومى لقيمته . وكتب شيشرون يقول " إن الخطيب إذا لم يكن له معرفة بالتاريخ فإنه سيظل طفلا " وفى ذلك يقول : " أن تكون جاهلا بما حدث قبل أن تولد هو أن تعيش كالأطفال إلى الأبد . فما أهمية حياة الإنسان إذا لم ترتبط بحياة الأسلاف بواسطة ذكرى التاريخ " ويذكر شيشرون فى كتابه الخطيب أن أول قاعدة للتاريخ هى عدم تعمد الكذب والثانية عدم تعمد كتم الحقائق . وبهذا أراد شيشرون التأكيد بأن يدرس التاريخ كمعرفة دقيقة لعلم تدوين الأحداث التاريخية. إذ أن هذا ما كان ينقص الطلاب الرومان . ولقد أحب شيشرون اللاتينية لغة بلده وأخلص لها . ولكن على الرغم من ذلك فضل عليها اليونانية كوسيلة للتدريس . وذلك لغلبة التراث الفكرى اليونانى . وقد جعل الباب مفتوحا ليسمح بإستعمال اللاتينية فى المستقبل . وقد أراد شيشرن بعد فترة من النفى السياسى قضاها خارج روما أن يعيد إسمه إلى ساحة الحياة العامة . وكانت التربية مسألة عامة جديرة بالإهتمام من قبل المواطن الرومانى ولم تكن مسألة سياسية خطيرة . فإستطاع شيشرون أن يرضى طموحاته فى ذلك الوقت

بنشر محاولة مستنيرة حول التربية . والدراسات التى ضمنها شيشرون فى التربية هى : النحو والأدب والمنطق وعلم الهندسة وعلم الفلك والموسيقى والفيزياء ، والتاريخ والقانون المدنى والفلسفة والخطابة .

التلاميذ :

كان التعليم المدرسى عبر التاريخ الرومانى مقصورا على الأولاد دون البنات لأنهن كن يتعلمن فى المنزل . ونظرا لأن التعليم كان خاصا بمصروفات فإن ذلك فرض قيودا على أولاد الفقراء . ومع مرور الزمن إعتبرت طبقة النبلاء التعليم ميزة خاصة بها . وتعزز الوضع الطبقى لدى الروم حتى أصبح نظاما وراثيا . وأصبح شغل المناصب الكبيرة وقفا عليهم . كما كانت العلاقة قوية بين مدارس الخطابة وبين مسئوليات وواجبات هذه الوظائف .

أما بالنسبة للبنات فلم يكن هناك مدارس لتعليمهن كما أشرنا . وإنما كانت البنت تتعلم من خلال التربية غير المدرسية من أسرتها فى المنزل أو المجتمع الكبير فى شئون المنزل ورعاية الأطفال . لأن هذا هو واجبهن الرئيسى . وكانت الأسرة القادرة تجعل إبنتها في رعاية إمرأة عبدة أو بيداجوجية أو معلمة خاصة .

أنواع المدارس وتنظيماتها :

عرف الرومان عدة أنواع من المدارس آلت إليهم من التربية اليونانية . كما عرفت أنواعا جديدة من المدارس هى المدارس المسيحية التى ظهرت نتيجة لإنتشار المسيحية ومساندة الحكام لها . وسنعرض لأنواع المدارس فى التربية الرومانية فى السطور التالية :

١- مدارس اللودوس :

استعارت روما بإستثناء مدارس اللودوس (ludus) كل مدارسها الأخرى من اليونان خلال الفترة الهلينستسة كما أشرنا . وبداية تاريخ مدارس اللودوس غير مؤكد أو معروف بالتأكيد . وكلمة اللودوس تعنى " اللعب " فى حين أن كلمة " مدرسة " اليونانية تعنى وقت الفراغ ومع مرور الزمن أصبحت مدارس اللودوس مدارس للرعب وليست للعب ، فقد كانت الدراسة بهذه المدارس تبدأ كما يقول المؤرخون قبل صياح الديكة فى الصباح الباكر (قبل الفجر) حتى

الليل . وكان المعلمون يعاملون التلاميذ بقسوة ووحشية صارت مضرب الأمثال.

وكان منهج هذه المدرسة الإبتدائية يتكون من القراءة والكتابة والحساب . وكانت القوانين الخاصة بالجداول الإثنى عشر تدرس كمادة للقراءة . وكان محتوى هذه الجداول يتشابه بدرجة كبيرة مع محتوى تعاليم كونفوشيوس الصينى . وكان الحساب يدرس لقيمته العملية المتعددة ، وأدى ذلك إلى ظهور مدرس خاص للحساب إلى جانب مدرس القراءة والكتابة .

وكان التلاميذ يلتحقون بمدارس اللودوس فى سن السابعة حتى سن الثانية عشرة يدخل بعدها التلميذ إلى مدرسة النحو . ومع بداية الإمبراطورية أتبع أسلوب مماثل لما كان فى أثينا بموجبه يوضع الأولاد فى سن السابعة تحت إشراف معلم عبد (بيداجوج) كان واجبه الأساسى توجيه سلوكه وكان هذا المعلم فى روما عادة يونانيا . وكان يعلم الولد مبادئ اللغة اليونانية . ومع إنحلال الإمبراطورية الرومانية وقيام الكنيسة بالدور التربوى فى أوربا أخذت مدارس الغناء والإنشاد المسيحية مكان مدارس اللودوس كمدارس إبتدائية .

٢- مدارس النحو :

كانت مدارس اللودوس خاصة بالمرحلة الأولية . أما مدارس النحو فكان تمثل المرحلة الثانوية . ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد كانت دراسة النحو فى العالم الهلينى دراسة متطورة جدا . وكانت تشمل النحو والأدب أيضا . وكان أول مدرس للنحو فى روما هو أندرونيكوس Andronicus وهو يونانى ولد فى جنوب إيطاليا . وجئ به إلي إيطاليا كعبد فى عام ٢٧٦ ق.م. وقد ترجم الأوديسا إلى اللاتينية سنة ٢٥٠ ق.م. وفى رواية أخرى سنة ٢٧٥ ق.م. وقد وفر بهذه الترجمة كتابا مدرسيا لتعليم اللغة اللاتنية فى المدرسة الأولية . وكان له زميل آخر إسمه إنيوس Ennius وهو إيطالى . وكلاهما كان يعلم اللغة اليونانية وترجم الأعمال الأدبية اليونانية إلى اللاتينية . وكان ظهور الأدب اللاتينى لا سيما منذ سنة ١٠٠ ق.م. سببا مباشرا لإنشاء مدارس النحو فى روما أولا . ثم سرعان ما ظهرت أيضا فى أنحاء البلاد وكان كثير من معلمى هذه المدارس يونانيين . وكان إنتشار الثقافة اليونانية يلقى معارضة شديدة من جانب الحكام الرومانيون وغيرهم . ومع هذا لم يتوقف إنتشارها . وهكذا إنتصرت فكريا

أثينا المهزومة عسكريا على روما المنتصرة حربيا وسيطرت على عقول غزاتها . وكان الأولاد الرومانيون يدخلون مدرسة النحو فى سن الثانية عشرة ويبقون لمدة أربع سنوات . وكانت هذه المدرسة الثانوية تمثل أقرب أسلوب بالنسبة للرومانيين لفكرة اليونانيين عن تمرين الفرد الحر أو التربية الحرة Liberal Education . إذ كانت تعتبر إعدادا للمدرسة الأعلى وهى مدرسة الخطابة .

وقد تضمن منهج مدرسة النحو منتخبات شعرية ونثرية كثيرة من الأدب الرومانى واليونانى . وكانت قصائد وأشعار هومر تحظى بمكانة مرموقة . حتى بدأت تحل محلها أشعار وقصائد " فيرجيل " فى القرن الثانى الميلادى . وكانت الدراسة بالمدرسة تركز على واقع العالم الإنسانى والإجتماعى .

٣- مدارس الخطابة :

فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى كان هناك كثير من الفلاسفة اليونانيين الخطباء فى روما . ومنذ هذا التاريخ بدأت الدراسة المدرسية للخطابة مع أن مدارس الخطابة فى صورتها النهائية ربما لم تظهر إلا فى نهاية فترة التحول عندما إنتشرت الثقافة اليونانية . وقد كانت هذه المدارس على كل حال يونانية فى أصلها . والواقع أن معلمى مدارس النحو ظلوا لمدة طويلة بعد ٥٥ ق.م. يعلمون تلاميذهم الخطابة على الرغم من وجود مدارس للخطابة خاصة بهذا الغرض . وكان الأولاد يدخلون إلى مدارس الخطابة فى سن السادسة عشرة لدراسة فن وأساليب الخطابة . وكانت هذه المدارس تقليدا لمدارس الخطابة فى أثينا . وكانت طرقها تقوم أساسا على تعليم آراء سقراط وأرسطو فى الخطابة وفيما بعد آراء شيشرون وكونتيليان . وإذا كان هدف مدارس النحو التعليم العام فإن هدف مدارس الخطابة كانت إعداد الخطباء فى مجتمع حر . وكان شيشرون وكونتيليان يريان أن المعرفة الموسوعية ضرورية للنجاح فى الخطابة وأن الخطيب الناجح هو الذى يستطيع أن يتحدث فى كل الموضوعات . وكانت هناك مدارس للخطباء فى كثير من مدن الإمبراطورية . وكانت مدرسة الخطابة فى " بوردو " (فى فرنسا الآن) أشهر مدارس الخطابة فى الإمبراطورية . وتستحق فى رأى بعض المؤرخين أن يطلق عليها جامعة .

٤- المدارس المسيحية :

مهد إنتشار المسيحية فى الدولة الرومانية إلى ظهور المدارس المسيحية . وكانت أهم مشكلة واجهت المربين المسيحيين هو تحديد الإجراء الذى يتخذ ضد المدارس العلمانية القائمة وما تقدمه من علم وثنى . واختلف قادة المسيحية فى ذلك . فوقف بعضهم بشدة ضد هذه المدارس . وطالبوا الآباء بإبعاد أطفالهم عنها . وبعضهم نادى بالإعتدال . فسمحوا للآباء بإرسال أبنائهم إليها مع التأكد من عدم فسادهم والمحافظة على أخلاقهم . كما كان هناك مربون مسيحيون لا يخشون التعليم العلمانى . وضمنوا مدارسهم كل الفنون الحرة والفلسفة كوسيلة لإعداد الشباب للدراسات العليا فى اللاهوت المسيحى .

وهكذا إختارت الكنيسة وهضمت بعضا من العلوم المدنية ورفضت بعضها كالفلسفات المادية لأنها ضد الإتجاه الروحى للكنيسة . ولذا لم تهضم علوم أرسطو وأبعدتها إلى سوريا ومصر حيث هضمها العرب فيما بعد . وعادت إلى أوربا مرة أخرى عن طريق العلماء العرب والعبرانيين فى القرنين ١٢ . ١٣ م .

والواقع أن إهتمام الكنيسة بنشر التعليم بدأ فى نهاية الدولة أو الإمبراطورية الرومانية . ففى سنة ٣٩١ م صدر قرار من مجلس الكنائس العام فى القسطنطنية يوصى بإنشاء مدارس فى كل المدن والقرى لتعليم الاطفال تعليما مجانيا . وفى القرن السادس الميلادي أصدر مجلس كنسى قرارا يقضى بأن يتبع الأساقفه فى كل أنحاء العالم المسيحى مايسير عليه الأساقفة فى إيطاليا وأن يهتموا بتدريب خلفائهم وتعليمهم . وهكذا أصبح إهتمام الكنيسة بتربية وتعليم قساوستها من الأمور الواضحة . كما أن الإمبراطور جستنيان وهو من المتزمتين المسيحيين أمر سنة ٥٢٩م بتحريم دراسة الفلسفة فى أثينا مما أدى إلى إغلاق جامعتها (الوثنية)، وأيضا عدم تدريس القانون إلا فى ثلاث مدن منها روما . وربما أن هذا الأمر يعتبر خطوة هامة فى ظهور رقابة الكنيسة على التعليم فى أوربا . وهكذا أخذت روما برقابة الكنيسة وإشرافها على التعليم مخالفة بذلك تاريخها التربوى . وكان ذلك نموذجا إتبعته أوربا وأمريكا حتى العصور الحديثة. ويختلف الوضع الآن لأن الدولة في هذه الدول هى التى تشرف على التعليم العام وإن كان هناك مدارس دينية خاصة .وبإغلاق الإمبراطور جستنيان المدارس الوثنية سنة ٥٢٩ م بدأت المدارس تدخل فى مرحلة جديدة تحت

تأثير المسيحية . وكانت عجلة التحول بطيئة . وفى خلال هذا التحول إمتزجت المثل والأفكار اليونانية الرومانية مع المثل والأفكار المسيحية . وقد كان ما ورثته المسيحية هو ذلك التراث الوثنى اليونانى الرومانى .

٥- الجامعات :

نما التعليم فى روما من خلال دراسة الفلسفة التى أصبحت على الرغم من المعارضة التى لقيتها شائعة بين الأرستقراطيين . وكان الأغنياء من الطلبة الرومانيين يذهبون لمواصلة تعليمهم العالى فى الخطابة والفلسفة فى بعض المعاهد الأثينية . وربما كانت أهم خطوة نحو التعليم العالى فى روما - كما يذكر المؤرخون - ما قام به الأباطرة الرومان من إنشاء مكتبات كانت تعتبر مراكز للدراسات الجامعية .

وكان الطلاب يدرسون فيها الهندسة والطب والقانون والأدب والخطابة والفلسفة وإن كانت هذه الأخيرة أقل الدراسات شهرة . وفى نهاية فترة التحول كان الرومان يعتبرون الخطابة ملكة الدراسات وآخر المراحل فى التعليم المدرسى . وكانت هناك جامعات فى المدن الكبيرة فى الإمبراطورية من أمثال روما والقسطنطينية حيث كان يوجد بها أقسام للنحو والخطابة والقانون والفلسفة .

٦- المعلمون :

كانت المدارس خلال فترة التحول مدارس . خاصة وليست حكومية . وكان التلاميذ يدفعون رسوما دراسية على تعليمهم ولم يكن للمدارس أى مساعدات مالية أو إشراف عليها إلا فى فترة التدهور ومنذ عهد القياصرة .

وكان الآباء الأغنياء من الرومان يضعون أبناءهم فى رعاية عبد (بيداجوج) منذ دخولهم مدارس اللودوس حتى سن السادسة عشرة ، كما أشرنا . وكان على البيداجوج أن يوجه تعليم الطفل فى الدراسة والأخلاق . كما كان يساعده فى واجبه المدرسى . وكان يعاقبه إذا لزم الأمر وكان يلازم الطفل فى البيت والمدرسة .

وكان المعلم فى مدارس اللودوس يسمى (المؤدب) Literator . وكان أيضا عبدا أو حرا . ولم يكن يحظى بإحترام كبير . كما كان مرتبه صغيرا يعادل تقريبا ربع مرتب المدرس فى مدارس النحو وخمس مرتب المعلم فى مدرسة

الخطابة . وكان المؤدب فى مدارس اللودوس معلما فقيرا لا سلطان له إلا توقيع العقاب البدنى على تلميذه . وكان معلم مدارس النحو يسمى معلم النحو Grammaticus أو معلم الأدب Litteratus . وكان عادة على معرفة جيدة بالأدب . وكان هؤلاء المعلمون يحظون بمكانة أكثر إحتراما إزدادت مع مرور الزمن . وكانت الرسوم التى يحصلون عليها مع أنها قليلة إلا أنها كانت أكبر مما يحصل عليه معلمو اللودوس . وكان المعلم فى مدارس الخطابة يقال له معلم الخطابة Rhetor وكان يحظى بمكانه عالية فى المجتمع . وكان يحصل على أعلى مصروفات دراسية بالنسبة لمعلم النحو . وكان المتازون منهم يحصلون على مرتبات عالية من آباء الأغنياء ، وإن كانت المرتبات غير شائعة . وهكذا كان المعلمون يحصلون على أجورهم من المصروفات الدراسية التى كانوا يحصلون عليها من تلاميذهم . وكانت هذه المصروفات لمدة طويلة تدفع كهدايا للمعلمين . وفيما بعد فى القرن الأول الميلادى كان المعلمون يحصلون على مصروفات ثابتة ومحدودة .

وكان الرومان يحتقرون فكرة المهن ذات المرتب . ونظرا لأن المدارس كانت خاصة فإن إختيار المعلم كان مسئولية الآباء . وبصرف النظر عما يقال عن منقصة أخلاق المعلمين فإنهم كانوا قساة غلاظا . وكان جلدهم للتلاميذ عاملا هاما فى تخليد ممارسة العقاب البدنى فى مدارس الغرب .